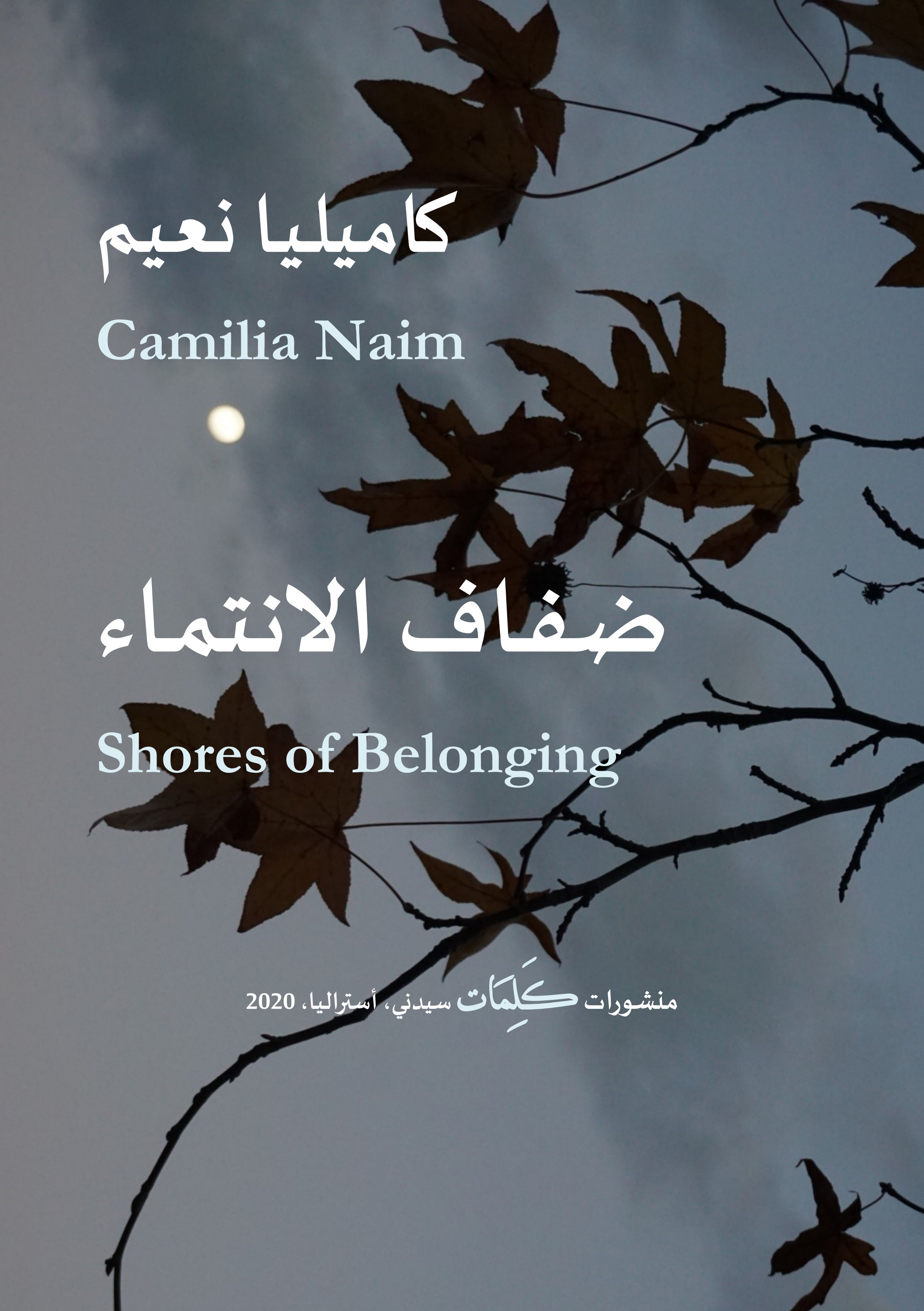

كاميليا نعيم

Camilia Naim

ضفاف الانتماء

Shores of Belonging

منشورات كلمات سيدني، أستراليا، 2020

كاميليا نعيم
Camilia Naim

ضِفافُ الانتماء

Shores of Belonging

منشورات كَلِمَات

سيدني، أستراليا، 2020

العنوان: ضِفافُ الانتماء

Title: Dhifaf al-Intima' (Shores of Belonging)
Language: Arabic

First Edition 2020

Published by Kalimat, Sydney كَلِمَات
www.raghidnahhas.com

Cover & Book Design: Raghid Nahhas

Photography: Raghid Nahhas

Printed in Australia by Five Senses Education

© All rights reserved.
Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the publisher.

ISBN 978-0-6485339-2-4

NATIONAL LIBRARY OF AUSTRALIA

A catalogue record for this book is available from the National Library of Australia

مقدّمة الناشر

كلمات كاميليا نعيم كلمات ريّانة ناضجة، لكنّها مفعمة بملامح البراءة الأصليّة من زمن الصدق الخالص. تقول: "هذه الطفلة بداخلي تسكن حنايا الروح، تعانق وجداني، لا تريد المغادرة."

تأتي تعابيرها مسبوكة وكأنّها لملمت رموز "نوتة" موسيقيّة كامنة في وعيها، وفرشتها على الورق لوحة تعبيريّة غزيرة المشابك التي تشدّ الوجدان إلى حضنها شدّاً.

أكاد أحار كيف لهذا الصفاء الواضح في المشاعر يخرج لنا صرخات منظّمة مدوّية، تضجّ في كيان تلقينا، لنطير في فضاء الحكمة والجمال، فتكون النشوة عارمة.

ليست هذه آهات من ليس لها حول ولا قوّة. إنّها هموم من يمتلك كنوزاً من الذكاء العاطفيّ. وهي "هموم" ليس لأنّها تبتلي صاحبتها فقط، بل لأنّ صاحبتها تحمل كثيراً من أوجاع العالم في فؤادها، وتشعر بغزّة الأوغاد في خاصرتها.

تستخدم كاميليا تعابير فريدة، وتركّب جملها بانسياب يزيد من سلاستها الموسيقيّة، لتأتي المقاطع النثريّة فواصل من موشّحات شعريّة تكاد تملك عصراً مميّزاً، كأنّه بتلة ورد ساقطة من أيّام الأندلس.

وهي في هذا كلّه صاحبة "نفس طويل" يُظهر لنا مقدرة على السرد القصصيّ في بعض الحالات. قصّة كاملة في بضع سطور. تاريخ سرمديّ في هنيهات. هذا ما أسمّيه "النبض بالكلمات".

تكتب كاميليا بعفويّة. وإذا أضفنا تواضعها إلى المعادلة، نعلم لماذا تردّدتْ في النشر حتّى الآن، رغم تشجيع المقرّبين وبعض الكتّاب والشعراء. ولهذا أعتبر نفسي رابحاً في حصولي على موافقتها على نشر أعمالها، فزادت منشوراتي جوهرة مميّزة من جواهر الإبداع والنقاء.

تتقدّم منشورات كَلِمَات بجزيل الشكر لمستشارتنا اللغويّة رغداء النحّاس-الزين، مدرّسة اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، التي لا تتردّد في الإجابة عن أيّ إشكال لغويّ نعرضه عليها.

رغيد النحّاس

منشورات كَلِمَات

هي قصائد عشق مزمنة ...

بين حنايا الروح خبّأتها، وانتظرت سنينَ عجافاً.

كسرتُ قيود مخبئها، أطلقتُ أسْرَها

حلّقَتْ كسرب فراشات

تراقصتْ على أجنحتها

الأحلام

الوعود

الأمنيات

رسَمتْ دوائر الأمل هالات

وحين عانقتْ حدود السماء

تحوّلتْ لسحابة أنين ...

تمطر الحزن سرّاً

ترقص على إيقاع الشوق

تخفي ملامحي في طيّاتها ...

وترحل.

كاميليا نعيم

إلى الطفولة الشاخصة نحو
عدالة السماء، والسواعد
التي أزهر عليها عشق الوطن،
وأحبّةٍ ما غادرت: تقيم في
القلب وخلف جدار الأبديّة.

إلى أصالة أكفٍّ دمشقيّة المنبت، إنسانيّة الحضور، رسمت بحبرها الأبيض على مرايا الوجدان لون الفرح، أخرجت بصدق البوح وشفافيّة التلقّي مكنونات السنين الغابرة، حوّلَتْها لجدولٍ عذبٍ تنساب على صفحاته مياه أشجاني: شكراً للدكتور رغيد النحّاس.

كاميليا نعيم

المحتويات

بدايات 09
طفلة 10
الوجه الآخر 12
لغة 13
مطر 14
رائحة قهوتي 15
حُرمة 16
زنابق الفرح 17
التفاتة أخيرة 19
سكن الفراق 20
أشرعة الوهم 21
تفاؤل 23
أنا التي لك 24
تفاصيل الصمت 25
الكلمة 26
هو 27
تساؤل 29
أرصفة الماضي 30
حروف الأشواق 31
الأحلام المسافرة 32
الكائن الافتراضي 33
صدفة 34
حياكة 35
فيض ذاكرة 36
فصول 37
كُرات الوهم 38
حديث 39
سقوط الكلمات 40
ملل 41
سأم 42
سيّان 43
السكن في قصيدة 44
شوق البدايات 45
ظلال أمنيات 46

شوارع التوقّعات 47
تيمّم 49
عبور 50
تجلّي 51
آنية العمر 52
على شفير الانتظار 54
الموت 55
وجهان 56
شروق يشبه العودة 57
ظلال إصبع 58
تمّوز 59
المعراج 60
ثمانية عشر نجماً 61
اليمن السعيد 63
نعش المذلّة 64
منازل الأحداق 65
جبل عامل 66
شتلات تبغ جنوبيّة 67
صافية كالنار 69
طاحونة 71
بقايا صوت 72
مباغتة 73
عذراً أمّي 75
كتابي 77
تلاوة 79
الدهشة الملحّة 80
كأنّي لم أرحل........................ 82
وهج النقيض 84
تلك الليلة 86
مبارزة 89
أنشودة الصمت 90
مواسم الفرح 93
رائحة الحبق 96
قبل الرحيل 99
أشرعة التخلّي 103
إلى غسّان علم الدين 104

بدايات

تلك البدايات ...

تشرق في قلوبنا كما النور يفترش قلب السماء. تطلّ علينا ببهائها. تملؤنا ضياءً ودفئاً. تبدأ من جفوننا وتغفو عليها. تُسقط قطرات الندى من أوراق العمر. تُعانق خيوطها كلّ أرجاء النفس.

تلك البدايات كالشمس: يصعب التحديق بها. ولا نستطيع رؤيتها إلّا عند المغيب.

تلك البدايات ...

هي فقط تعنيني.

طفلة

هذه الطفلة بداخلي تسكن حنايا الروح، تعانق وجداني، لا تريد المغادرة. كم حاولت أنْ أعتقها. كم هي المرّات التي فتحت لها باب أضلعي لترحل. لكنّها ما ازدادت إلا تشبّثاً!

تختال على ضفاف الأيّام. تبدّل عتمة ليلي بضياء من أنجم السماء. تحوّل صمتي الوقور لأهزوجة فرح ترسم بأناملها الصغيرة أقواس قزح على جدار زماني. تسدل من خزائنها ستائر ورديّة لا تعبأ بدفاتر الأيّام، ولا تعترف بقوانين النضوج. لا تقرأ كتب المفروض، ولا تأبه بتعاقب السنين.

كم كانت تأتيني على غفلة من دموعي، تمسح على وجهي بمنديل رقّتها، تُعلّق على مرآة العيون نظراتها الوفيّه، تستلقي على أعتاب السنين: تباهي الوجود بحضورها. تحمل مظلّة التفاؤل، تحميني من تساقط الخيبات والغدر.

طفلة يفوح من قسماتها شذى الياسمين وعطر بياضه. أغصانها عفويّة وارفة الظلال، تحمل ثمار الأمل. تغضب، لا تحقد. تعرف كيف تعزف على قيثارة العمر أنغام الصبا لحناً أزليّاً.

طفلة لا يخدعها الكبار كي تكبر. ترفض أنْ تغادرني.

لا تراهنوا على الأحلام البريئة في قلعة أنوثتي: لن تغادر. ستبقى تلاحق الفراشات، تقطف الزهور بشقاوة، تسابق الجداول بطيش، تعبث بغربتي، بغيابي، تتوسّد عشب السنين، تحوّل صحراء العمر إلى بساتين حبّ مشرقة تجدّد براءة الروح. تنثر على بيادر الطفولة حصاد الأيّام.

تضيء من سراج الذكرى، التي ما رحلت أبداً، لمعان أنجمٍ، ورائحة أرض حين يزورها المطر أوّل مرة.

تملأ قوارير العمر التعبة برحيق عذوبتها. ترسم بريشة أحلامها شكل ابتساماتي. تعدني ببقائها، ووشاح طفولتها على نوافذي، وعمق جذور قدميها الصغيرتين المنغرستين بعناد في تربة زماني، تغفو بين أحضاني، تعانق ذاتي.

أعدها بأنّ رحيلنا في آخر محطّة على رصيف الزمن، لن يكون إلّا سويّاً.

الوجه الآخر

أنا وجهكِ الآخر
اخلعي همّ العمر
والتصقي ...
لا تعانقي مدى القصيدة
ارقصي على إيقاع الحرف الأخير
وتسلّقي جسور الحياة
تجاهلي سرّ الموت.
تعالي نستعيد إغراء سخاء العشق
ونخدع الحزن ببراءة الحضور الصامت
نحتفظ بوفائنا الأنثويّ
نضعه في قارورة عطر
نعيد ترتيب سنّ التأمّل
نتسلّق ... ونهبط
لا يهمّ إنْ كنّا أكثر سعادة
أو أكثر حزناً ...
المهمّ أنْ نكون سويّاً.

لغة

هو قدر الفراشات:
حلّقي
وليكن تحدّياً
احترقي.
لا تقفي بين جملتين
لا تقاسمي لغةً ليست لكِ.
آهٍ لو كنتَ ...
على قياس صمتي
وجنون لغتي
التي تلبسُني حدّ التقمّص.
وأنْ تشبه أحزاني
ولون حنيني الموجع
الذي يرفض أنْ يغادر.

مطر

مطرٌ ينقر على بلاط شرفتي،
يتحرّش بأوراق وحدتي،
يمرّ بمحاذاة صمتي،
يلقي عليّ تحيّة الصباح.
يحتضنني، يعبث بدمعي، يعطيني جواباً دون أنْ أسأله.
يجتاحني، يخبرني أنْ لا شيء يهمّ.
يأخذ بيدي، ويهمس:
تعالي نشرب القهوة سويّاً.

رائحة قهوتي

لرائحة قهوتي
عطر حنين
ينبعث
من تلافيف الذاكرة.
ينساب
على أُنس الصفحة الأولى
من السنة الجديدة.
لها مذاق الشغف ...
بوحدتي
ولون الصمت
والتلاقي.

حُرمة

قد تطفو يوماً
على سطح رفضي
يباساً.
قد تسقط
من وعاء صدقي
وهماً
سئمت التحايل عليه
وفائضاً من ظلامٍ
انتهك حُرْمة الضوء
في حلمي.

زنابق الفرح

رغم كلّ خيباتي، ما زلت أثق، ولا زلت أراهن بأنّ جمع الأحزان سيزهر زنابق فرحٍ، في مشتل ما، على زاوية إحدى المفارق لأمكنةِ زمن يخبّئ أسراراً خفيّة، تحمل في طيّاتها رحيق الأمل.

ما زلت أؤمن بشذى ذاك العبير: تلك الخيبات لن تأخذني لسواد عالمها كلّما وقعتُ عليها أم وقعتْ عليّ. وحين أحدّق إلى ما وراء ألوانها القاتمة، يتبيّن لي من خلف زحام التملّق بصيص نور الوفاء. لذلك كنت دوماً أترك له مقعداً شاغراً في صخب الخذلان يستدلّ عليه.

عندما نخسر رهاناتنا على من نؤمن بهم، لا نخسر أنفسنا. نعي أكثر أنّهم لا يستحقّون تلك الدمعة. أولئك الذين مرضت لأجلهم، هم من أشاروا عليك بأنّك سبّبت لهم المرض. فليصطادوا بصنّارة الزيف وهْمَ القِيَم. ذاك البحر لا يفيض سوى مروءة كاذبة. مياهه آسنة. لستُ معنيّة بغرق أحد. لن تقدر رياح الانهيارات في النفوس الوضيعة على المسّ بعلوّ الأحاسيس.

تلك الدهشة ستبقى رفيقتي عند اللقاء بكلّ خيبة. وستبقى ثقتي بأنّ الآتي سيكون أنقى. لن تجلب التجارب المؤلمة سوى المزيد من الإصرار على ولادة الرحمة ونقاء السريرة.

يمضي العمر بحمولته القاسية. والانتظار بجواره يمضي، يترقّب سُحب أمطار الخير تروي عطش أرض النكران والجحود.

سأبقى أنتظر النصوص الراقية في زحمة نفاق الكتابات. لن تهزمني تلك الأحجام الهائلة من الغبن. أسند رأسي على جدار الترقّب وأنتظر.

أعلم أنّ الصدق قليل، لكنّه يأتي. بتواضع حضوره ينتصر. ويقضي ببراعة تفرّده على الكمّ الهائل من ندرة الوفاء.

سأبقى هناك في المكان الضيّق، أعلم يقيناً أنّه آتٍ.

التفاتة أخيرة

تعود الخطى إلى حيث انطلقت.

إلى مكمن الحزن والأسرار.

ويستيقظ السؤال الذي كنت على وشك أنْ أغلق جميع منافذ العبور إليه.

سؤال كلّما قزّمته ازداد تمرّداً وعظمة. وحين أغضّ الطرف عنه، أسمع وقع خطاه يعدو خلفي بقوة. أنصت لعلّني أحتوي هذه المناورات العاصفة.

أجلس على ضِفّتَيْ البقاء والهروب.

أنتظر دور الالتفاتة الأخيرة للقلق. لعلّها تكتم أنفاس الأسئلة. وأستريح.

سكن الفراق

قليل العمر حيث تركتُ. لكنّه الكثير.

حاولت اقتلاع جذورٍ أتأمّل بمكرٍ مدى التصاقها. أنْعَتِقُ من التماع الفكرة. أدرك أنّ السذاجة تزيدني شقاءً. لكنّه يأسرني، يتمسّك بي أكثر.

أطلقني بشروطه. أصبحتُ بلاهة الترحال، من عبور إلى عبور أمضي. يسكنني.

أزدادُ التصاقاً حيث لا أكون. وأبْعُدُ أكثر حيث الوجود أربكني. هو انهيار ركن من العمر، أم ضجيج أمنيات. سجون بلا قضبان. أريد أنْ أنشقّ عن أوهامي. أعلن العصيان على الصبر والجدل والندم، وأكسر عمداً هذا الاجتياح. أنهي الألم. أتذرّع بالتعب. أراجع علاقتي بالقدر واختياراته.

أفارق سكناً موجعاً. أسكن فراقاً يقلقني. وعلى مرأى من قبيلة الأحزان، أتوغّل في صمت يختصر كلّ أنوثة المنفى.

أشرعة الوهم

لن أكون معك.

ولن أكون في أيّ مكان.

سأبحر في مراكب ذات أشرعة وهميّة، وأستقل قطارات تتخطّى محطّات عينيك. أستعين بنسيان ليس له مفاتيح وأبواب.

أمحو من أوراق ذاكرتي كلّ التفاصيل.

أسقي الزمن الآتي بماء الياسمين.

© Photo by Raghid Nahhas

تفاؤل

تذكُرها الليلة الأخيرة: حين كنتَ باهتاً كوردة ذابلة، قاسياً كمطرقة، حينما احتجتُ أنْ تحادثني، أنا التي خارج الزمان والمكان؟

دونما تفكير أخذت أقراص المنوّم، مدركة أنّها تقودني إلى أبديّةٍ سوداء. لكنّ عزائي كان أنْ أخلق من بياضها ما يعوّض فراغ ضجيجي، ووحدتي.

عندما يتساقطون من عينيك ويتناثرون على الأرض كأوراق صفراء، لا تحزن. استعد عافيتك العاطفيّة. راقب بعين التفاؤل هشاشتهم المزمنة، وانظر براعم الأمل كيف تنمو على أغصان التجربة.

أنا التي لك

بداخلي خوف أعجز عن تهدئته. الخسارة تبدأ عندما تحاول أنْ تداوي جراحَنا أناملُ من غرزوا أظافرهم في أحلامنا ويقظتنا عميقاً. عندما يحيك لنا، من ألقوا بنا عراة، سترة نجاة من خيوط معاناتنا، ليعبروا بها هروباً إلى شاطىء الأمان.

لنكسب الفسحة البيضاء، علينا أنْ نواجه قدرنا وحدنا بيُتْم قهرنا، من غير ذاك الدعم المشبوه. أقوى الوعود تقال بكلمات قليلة، بثقل صمت فعّال. اليد الطليقة الحرّة وحدها سفينة النجاة.

خذ الربيع الذي ظننته لي، وارحل.

خذ الهواء والأرض ومن عليها لك وحدك، وفيضاً من نسيان يصحبه فراق.

لكنّني أعلم أنّك ستعود لي، وفي عينيك نظرة لا تحدّها محيطات، ولا سماوات، وفي قلبك مساحات لا تتسع لسواي ...

لا يوجد غيري يملؤها لك.

تفاصيل الصمت

أنتِ امرأة خارج التقويم الزمنيّ العاطفيّ.

بل أنا امرأة ما زالت تنتظر على رصيف الزمن ذاك المسافر يحمل حقيبة الأحلام، والأجوبة التي بحثت عنها في كتب السنين، ليعبرا سويّاً من ردْهة الروح إلى أبديّة اللقاء.

أغادر الجميع من حولي.

أبحث في الكون عن كائن من ظنوني، يجسّد محض جنوني.

يقرأ تفاصيل صمتي.

وأترك خلفي همّ الحنين وهمّ السؤال.

أسكن سحر الخرافة طوعاً.

أفترش تحت ظلال نخيل الغياب مهداً.

أغفو ...

ولا أحلم ...

الكلمة

قل عنّي ما شئت.

فراشة تحترق بضوء الكلمة. أجنحتي لا تحلّق إلّا بعبق الكلمات.

الكلمة هي الموقف، العشق، العهد، والوعد.

هي احتواء الروح، ثراء النفس، الريح التي تعصف في مناخ فصول العمر، تستعجل نهاية مواسم اليأس، تزهر براعم الحلم لإيقاف تصحّر الأمل.

الكلمة لا تسقط. يسقط من لا يجرؤ على بلوغ برّ الوفاء بها. وتبقى الكلمة مرفأً عليه ترسو عوالم دهشتي، يروي ظمأ عطشي الصوفيّ بمطر صدق يهطل رذاذَ سحرِ عبيرِ الأحرف بين حنايا الروح، رغم زيف من عبروا، واستباحوا النقاط والفواصل.

سأحمل رفات كلماتٍ خذلتني. أنثرها في فضاء التحدّي. أتهيّأ ولادات يفوح الوجد من عبير أبجديّتها. أهمس في سرّ نقائها:

"في البدء كانت الكلمة."

هُوَ

هناك من يطرق على باب صمتكِ، ينسلّ الى حياتكِ دون استئذان. يتسلّل إلى براءة تستوطنك، لم يلوّثها زيف العابرين. يحتل مساحات الضوء التي كنتِ قد أخفيتها طويلاً وعميقاً. يصبح الطيف الضيف. لا تطارده الشكوك وإن ساورتكِ. تخلقين له الأعذار. يصبح للإدراك صوت آخر اسمه هو.

يُسمعكِ تلك الكلمة السحريّة. كلمة تغزل أقماراً تضيء في عتمة الفراغ والوحشة. كلمة تنسج من خيوط الشمس شالات دفء لنهارات الوحدة الطويلة الباردة. كلمة ترقص على أنغام الشغف. تتمايل على إيقاع الوجد.

يوقظ فيكِ ومضات سحر ببساطة رنين رقم هاتفه. لا تجديك نفعاً خبرة السنين ووقارها. لا يأبه الطفل في داخلكِ إلّا بلعبة الأقدار. وأنتِ التي تملكين من الحدس ما يكفي لقراءة خطى الوافدين والراحلين، تغضّين الطرف، وبكِ افتتان كي لا يغادرك الحلم. تكتمين أنفاس التوقّعات. تتعلّقين بكلّ رموز التسلّل، وأنتِ تعين ضآلة ما تصبو النفس إليه ... تمضين موغلة بالوهم عميقاً.

يحدث أنْ تنتابكِ حالة من الذعر فجأة. تلك التجربة التي أتت إليكِ بخطى رصينة، بقوّة مباغتة، تغادركِ متلعثمة، تتهاوى عند أوّل تسلّق، عند أبسط صعود ...

تسقط.

يضيع صوتك.

لم يعد هناك حاجة للسؤال. تتنفّس التوقّعات. وذاك الحدس يتخذ مكانه في زاوية المتابعة، يرمقك بنظرات العتاب. لطالما أذهلتكِ الحياة بضجيج الألوان، وأفقدتكِ الشهيّة إلى الكلام.

لا يضرّ ثمّة رجوع أو تراجع. هي مسافات زمنيّة تبحث عنكِ أو تبحثين عنها. تهيّئين لها أم تباغتك. ربّما تعود حين تملّين من انتظارها. أو تترك لك عنوان الغياب.

تساؤل

هل يمكن أنْ يتحوّل جفاف صيف صحراء النفس، واصفرار أعمار الحزن والخذلان، فجأة إلى شتاء مربك بغزارته، تهطل فيه أمطار الأمل، من غيمة الانتظار، يبعث الحياة في أغصان جافّه تحنّط فيها الألم، وتبدأ براعم زهور الفرح بالتفتّح، تتحدّى مقاييس الفصول، بعيداً عن ترتيبها، وتعاقب التواطؤ، وتنكيل اصطفاف حجم الخيانة والتعاسة التي تسكنها؟

فقط أتساءل.

أرصفة الماضي

أحاول جمع أشيائي في إناء الذاكرة، وإعادة ترتيب تَبَعْثُرِ أوراقٍ ألحقَ بها الزمن أشكالاً مختلفة من الدمار.

أعيد الكرّة مراراً.

هي ذاكرة كيديّة تتلهّى في مكنونات الوجدان. تلقي من نوافذها فصولاً وحكايات أتشبّث بها. وتستفزّني بسردٍ أحاول الهروب منه. أدير بوجهي عنه، أغضّ الطرف عن رؤية خيالاته، لكنّها متسلّطة في إخفاء ما تشاء، والإبقاء على ما تشاء.

أريد تصفّح تأمّلات اللهفة فقط. أهزم العلامات الفارقة التي حملت توقيع الألم والخيبة. أهبها لنسيان يحجب عنّي ملامحها.

أنا التي بزغتُ دفئاً من خلف تلال تلك الأرض الطيّبة، أقطن في مدن أخرى باردة. أبحث فيها عن امتداد لشروقٍ من أرصفة الماضي، وأزقّة الفراق. أستطيع رؤية خيوطه وأنا مُغْمَضة العينين. هناك بريق خاصّ يلمع في العيون، حين تحتضننا أمكنة معيّنة. أريد استرداده ... أبحث عنه بشغف ... لا أحتاج الخواطر المغلّفة بالأوجاع. أريد الاختباء خلف بوح تلك الحكايات الجميلة. أرافق ذلك الركن من الذاكرة. أسكن بمحاذاة أحاسيسه الحميمة.

أطفىء في المقلب الآخر، بصقيع لامبالاتي، أسهم نار كلّ خيار راهنت عليه ... وسقط.

حروف الأشواق

بقايا عطر يتلاشى
فوق عتبات الغياب
يلوّح بمنديل الوفاء
يسرد قصائد الحنين
يتراقص على أثير الذكرى
يتشكّل أحرف أشواقٍ
على توقيت ظلال الانتظار
يرسم كلمة الوداع
حيث الغروب والصقيع
لا أضواء ولا قلوب نابضة.
يفتّش قلبي عن مبدعٍ
يعيده إلى سيرته الأولى
بلّورة قنديل
يضيء
عتمة المكسورين.

الأحلام المسافرة

عندما تفقد الشهيّة إلى الجدال، تكون الهزائم قد سلبتك صوتك. أو ربّما تكون قد بلغت سنّ الفاجعة.

أنْ تقلع عن الغضب فهذا يعني أنّك غادرت عنفوانك. وإنْ أقلعت عن الحلم فهذا يعني أنّ الهزيمة ليست خلفك، بل تسكن فيك.

لكنّني أصاب بالذعر عندما تهمّ الأحلام بتوضيب حقائب الرحيل. عندما تنحني هامات الحروف الشامخة، لا تسعفنا أيّ تعاويذ سحريّة لانتشال ما تبقى من إنسانيّة مغادرة. ولا يبقى سوى أصداء كلمات مبهمة.

عندها تنسّل إلى ثقوب ذواتنا خيوط المغيب، وتبدأ الحياة بإسدال ستائر السقوط.

الكائن الافتراضيّ

أفترش أحاديث وهميّة، مع كائن افتراضيّ، حول طاولة الضجر.

ثمّة أحاسيس ملتبسة، ممزوجة بنقاء الهزيمة. نملأ الأمنيات في كؤوس الصبر. نتبادل أطراف جمال صنيعة وحدتنا. وحين نغادر، نترك بقيّة من وهم الكلام لطاولة الموعد القادم.

لا جدوى من تذكّر الأشياء: الوقت كفيل بالممحاة ... والضجر.

صُدْفة

أحتاج لصدفة تقلب معادلاتٍ في زمن التيه والتشتّت.

أحتاج لصدمة تلهمني كيف يحمل الغضب توقيع الرفض، وكيف أخلع حدادي العاطفيّ على الصدق.

أنفض غبار الذكريات. أحرق البخور. أطرد آثار الأرواح. أسخر من الحكايات والفصول تتسلّل تدريجيّاً لعوالم جديدة.

أبرّر فراقاً مباغتاً، أتقبّل صفة المهزوم والمتهم، أصادق زيف من يتنكرون، وأصبح أكثر كرماً مع من يخونون طعم الملح.

حياكة

الحزن الصامت المتّشح بالألم قماش راقٍ لحياكة نصوص أدبيّة. نصوص مطرّزة بأوجاع الحروف، تقاسم وحدتك وسكينتك، وألوان تضيء بمصابيح عصيّة على سرد العتاب وصنع الغياب.

أحتاج إلى ومضة حياة تدهشني. تستحقّ أنْ أتألّم لأجلها. عثرات أربكتني وارتديت لون حزنها. انعكاساتُ أضداد واهية وباهتة.

بعض ما ظننته في الماضي والحاضر مؤلم، لم يكن سوى خرق بالية، وقصاصات ندم فيما بعد.

فيض ذاكرة

حين أقيم على ضفاف انتمائي مثل نبتة بريّة، ألتمس التفتّح من شقوق الصخر، أراك سياجاً ... مواسمَ اخضرار... وسواقيَ من الحنين.

وحين يربكني الشوق، يتوغّل الصمت عميقاً. تغادرني اللهفة. تصبح أنت عبئاً، رفضاً، حصاراً، تقتلع أوزار الأيّام والساعات ووهم اللحظات.

أغادرك على مرأى من الأمنيات السرّيّة، واجتياح فيض من تلك الذاكرة المثقلة، وأرق الأسئلة الموجعة.

أعبر بمحاذاة مساحاتك الصفراء، ووجهك الشاحب بلون الأنا يذكّرني بأنّنا في زمن العلاقات العابرة، والأوراق المتساقطة.

أرتدي نسياناً يفيض بهذيان التخلّي. أنتعل نصوصاً مشوّهة، مطليّة بالوفاء.

وأغادرك بصمت.

فصول

لا أتذوّق حلاوة العنب في فصل الشتاء. كما أنّي لا أستسيغ طعم الكستناء في الصيف، ولا وجوهاً محنّطةً لنساء تخشى علاقتها بالزمن. وجوه دائمة الارتباك والصدمات، هزيلة بخوفها من بصمات العمر.

نساءٌ تباغتُ خطوط السنين، تُلبسها حداد الوقت، تشيّع وهج نضوجها إلى مثوىً تدفّقَ زيفَ صباً باهتٍ. تربك زهو فرحِ أيّامها وكبرياء حزنها، أنفة ألمها وتواضع ملامح الصبر من مخلّفات الأيّام الغابرة.

أحبّ تعاقب الفصول وترتيبها. حكمة الطبيعة. لمساتها المهيبة على البشر والشجر.

أحنّ لانتظار كان يملؤه الشوق، والحلم، وعطر الماضي.

أترقّب ساعي البريد يلقي في صندوقنا رسالة من أمّي، بقلم أختي، تخبرني فيها كيف حال القرى.

هذا الفيض من الرسائل النصّيّة، على هاتفي، يأتي مثل شتاء دخيل على تربة لا تشكو جفافاً، ولم يبتهل أهلها للسماء كي تمطر.

كرات الوهم

أستحضر وجودك على مساحات العشق، وأعلم أنّ لا قلب لك يخفق.

أبني تفاصيلك من كرات الوهم صنماً ثلجيّاً على ارتفاع كبريائي، وشموخ ما أرى.

أعيد ترميمك مرّات ومرّات، وحين أملّ من خُرافة صنعك، أُدخلك حلبة الصمت.

أُشرق عليك من شمس رفضي وتطرّفي: أفضي بك ذوباناً نحو ذاكرة مسكونة بالأحلام.

حديث

حدِّثني عن الجدران الحزينة التي تواري وجهها عنّي كلّما لاحت ساعات الرحيل.

حدِّثني عن الوجوه التي تتوهّج فرحاً لحظة اللقاء، ودع عنك ملامح الحسرة والعتاب حين أخطو باتجاه حافلة البعاد القصريّة.

حدِّثني عن رداء الصمت حين يلتحف باحة منزلنا القديم، وامسح بحنوّ أناملك على نظرات ناعسة، تسمّرت على بوّابة الدار حين العيون غادرت.

حدِّثني عن شموع الضحكات، كيف أطفأها نسيم الغياب. وعن ذاك الفجر يطرق على باب يقظتي، يمسك بيدي، يأخذني لخيمة ياسمين "عليّ"، لحضن أريج طفولتنا، لمزيج رائحة القهوة والتبغ والحبّ، ترسم أشكال الذكرى، وبحّة إيقاع الوقت على وجه الصباح.

حدِّثني عن المسافات حين نخبّئها خلف الزمن. نصغي لعالمنا السريّ الذي نحيا بمحاذاته، ولهمس من رحلوا باتجاه السماء.

حدِّثني عمّن يسرق ماءك. يباغتك بنموٍّ أسرع منك. يولم من سِلال خيراتك. يمنّ عليك بما لديك.

وعن قلبي ... الذي أسْكَنْتَه مرغماً، على نقيض، ضفّتَيْ السفر والعودة.

سقوط الكلمات

أتقوقع كجنينٍ في رحم الدهشة.

أتدثّر غطاء السراب ... بخيبة أرقب، أترّقب بتوجّس، أهذي. ماذا يبقى حين تسقط الكلمات؟

حين يتهاوى صرح الصدق تصفعك جُمَلٌ آمنت بها، تتنكّر لك فواصل ونقاط، تتناثر أقنعة المفردات، تتلبّد فوق سمائك غيماً أسودَ. يهطل زيف العهود. تنسحب المواقف. تتعرّى الحروف. أبجديّة بأكملها تهوي. جدالٌ يُلبس الحقّ ثوب الباطل. وباطل يخدش بأظافره وجه الصدق. ماذا يبقى حين تسقط الكلمات؟

ما جدوى تلك البقيّة من العمر، حين يُغمد في القلب النديّ خنجر المقولات: كيف تُلَمْلَم أوراق الخيبة، وتُضَمّدُ جراحات الأمل؟

أيّ تيهٍ هذا، حين يهزمك زحف القول، ويصفعك رجع الصدى، ويُشَوَّهُ التاريخ؟ يأسرك الخوف. تهجوك النفس التي كانت نبض الأشياء، تلقي بك في أقبية الماضي ... وهماً، وتُسدل عليك مرايا الحاضر ... وهماً. تَسْرَحُ في البعيد تبحث عنها.

لا يسعفك إلّا صمت أبديّ.

أخبرني كيف تمضي: حين تسقط الكلمات.

ملل

سئمت النفوس المرائية.

سأفترش ظلاً صغيراً تحت شجرة زماني، وألقي من ذاكرتي، قصداً لا سهواً، أشباه أشخاص يرتدون أشباه مبادىء، مقنّعين بأشباه مواقف، يلعقون أشباه عقائد.

غيّرت رأي!

لن ألقي بكم تحت ظلالٍ وارفة. أخاف أنْ تمرّ غيمة عابرة، تحمل ذريعة ما، فتهطل عليكم رذاذَ وهمِ خيرٍ مصطنعٍ، فتوْرِقوا. أو تنبت على جدار شغفكم أغصانٌ، أو تستعيد جذوركم الواهية ومضة حياة.

سألقي بكم على امتداد صحراءٍ أرضها جدباء، شمسها حارقة، لتذيب حممُ وهجها بقايا مُثلٍ، وفتات القيم المتناقضة، وتذري الرياح العاتية رماد ألوانكم الضبابيّة. ذاك اللون الرماديّ شاهد زور في حضرة المواقف والمنعطفات، كلّما لاحت أساريره يشعرني بالقيء. لا يليق به الربح أو الخسارة.

وسألقي معكم كلّ بلاهة الأعذار المثقلة، والمبرّرات التي اختلقتُها لوجودكم، والرهانات الفاشلة. لن يقطن في الذاكرة سوى ملامح السواعد السمراء المتّشحة بلون الشمس، المتوهّجة برصانة الصمت، وعمق الرؤية وبلاغة الموقف. ملامحٌ يستوطن على أطراف أناملها العزم والحكمة وجرأة البوح. سأدفن في باطن الأرض صرير أقلامكم وحبرها المتورّم بداء التملّق والجبن واليأس والخوف، وفيض كلّ زيف الشعارات.

سأم

يستحلّني قحلٌ فكريٌ.

أحتاج للعتمة كي أكتب. أطمح إلى كتابة سطرين بريشة أغمسها في حبر القلب. أرسم على بياض الورق دمعة. أتحايل عليها كي لا تسقط. أسكنها في أحداق ناعسة، تلبس عنفواناً يخفي ارتباكاً. أرسم وجهاً بملامح غاضبة. صرخة تصاب بسكتة دماغيّة.

أدير بريشتي نحو شجرة زماني: غصن زيتون ... يتحوّل لأغصان أذرع ملتوية. استنزاف يسخر من عجز أيادٍ مرفوعة نحو السماء.

سئمت غرس نظراتي في حقول الزمن، وحصادٍ لم يرتوِ من عرقي وملح دموعي. طمأنينة من عتمة الأسئلة. قطاف الوهم على بيادر الجنون.

سئمت ألواحاً بشريّة معلّقة على صدر حياة شاحبة، وادعاء انتماء لا ينتمي.

سئمت زحمة موت ... وندرة ولادة.

سيّان ...

قطرات من اللون النديّ، وسواقٍ من الدمع تسيل.

سيّان عندي فراق، أو لقاء ...

هو شغف، شوق، ربّما عشق ... لا يهمّ.

المزيج الرائع البائس ... المحفور بالذاكرة.

قطرات، بحلوها ومرّها ... كصفصافة تنوح فوق ساقية وحيدة، حزينة.

انتماء للجذور يغرس النصل في القلب. يرفض الاغتسال إلّا في الدم النابض في العروق. يرقص على إيقاع الموت الورديّ بصعوبة انتشال الروح من الجسد ... كيف يتوحّد الضدّان.

انتماء جارف واستسلام ساخر. أشيائي الحميمة. حزني الرائع، قهري، غربتي ...

جليد ... وبرودة حضارات المدن.

قطرات تتساقط. تترقّب دهشةً مباغتةً. ومتى سيحلّق ذاك النور؟

متى سيبدّد تلك العتمة؟ متى سيعبر فوق المنطق والعبثيّة؟

فوق رفات كلّ الأشياء.

السكن في قصيدة

كيف لجسدك الأخرس أنْ يعزف لحن حوارٍ مع امرأةٍ تتعطّر بأنوثة الوطن والمنفى؟

امرأة مزيج: تغزل من نسيج عذاباتها عباءة فرح. تلوّن أكمام سواد الوقت ببياض شرائط التفاؤل. تكتم همس الروح. ترتشف اللوعة حتّى لا يستيقظ على صدى بوح الأنين من عبروا، وغدروا، وخدشوا بلّور صفاء النفس.

أنت المُطفأ الذي لم يستشعر أصلاً وقود لهيب اليقظة. لن تقدر أنْ تقرأ كتاب امرأة تتجوّل بين سطور المعاناة. تمرّ عبر نقاط الدمع. تُحَوِّل صفحات التبعثر إلى قصيدة حلم تسكنها. تخلق من أركان النَظْم نبض حياة.

أنت المسجّى على متن سطور الجدل والظنون؛ عصيّ عليك فكّ رموز امرأة تختصر كلّ أوجه التحدّي بنظرة عتاب، ترسم على وجه الخذلان بسمة الأمل بضبط الإيقاع بين ضجيج الوقت والصمت العميق.

لن تجيد قراءة القصيدة المسافرة على أشرعة الحكمة، ونوبات الجنون.

لن تدرك لون العطش المزدان برسوم أكواب الاكتفاء، ولا صوت الهزيمة التي تقارع، بغضبٍ، حدّ الاعتراف.

شوق البدايات

لستَ نصفي الآخر ..

لا تشبهني. لم تلامس أنامل عشقك ضفائر أحلامي، ولم تؤنس جدران وحدتي مرايا حضورك.

يدي الممدودة نحوك سَقَطّتَ فيها فراغاً، وتهاويت مهزوماً.

تمضي بقساوة فوق شقوق صخور الضجر. لي توحّد خواصّ تربتي: شذى من زهور طفولة، وشال من طيف فراشات، يتلألأ على عنق الأنوثة.

لي مزيج من عبق قديم يلوذ بي، لا يفارقني، يجتاحني على قياس حنين يليق بهدأة سكوني.

بؤس ضجيجك لا يشبه انسياب صمتي.

لك زهو التخلّي ... تنكيل النهايات.

لي شوق البدايات ... ورود الذاكرة.

رقص تصوّفك لا يشبه زهدي.

ظلال أمنيات

هو فرح كاذب، لكنّني سأعلّق عليه ظلال الأمنيات، وعزفاً على قيثارة النبض.

لوجدِ الوهم خرافةُ لحن.

حنينٌ دفينٌ يتمايل على أعواد الجرأة، يقلب مقاييسَ ومعادلات.

قلب طفوليّ يهزأ بحكمة السنين.

شغفٌ بما لا يُرى.

ترويض رفضٍ طاعن بتشبّثه.

ذرات عشق أبكم تذروها رياح الشوق من حقول تلك العيون الحائرة التي غلّف فضاءها سحاب كبرياء اللهفة.

جنون لا يليق بأنوثة مطيعة، نسيج من الحكمة والسخرية، تتقاطع فيه المسافة بين طرفي النقيض، يدوس بلا مبالاة على ضجيج أبجديّة النفاق ...

ويمضي.

شوارع التوقّعات

لن تُشوّه رؤية الساقطين من شواهق الأعمدة في فجوة المواجهة صورة الوفاء، ولن تُخَيِّب توقعاتكِ، وتلقي بكِ في غيبوبة الوهن.

تلك المواقف الزئبقيّة، رهائن اللحظة، لم تخذلك أنت. لم تُحوّل وجهتك نحو نفق الإحباط واليأس. مغادرة وهج العزم من جمر اللهفة إلى رماد التخلّي، لا يُطفىء شعلة الصدق في أرجاء الروح.

عند تواطؤ الأجوبة تَمسّكي أكثر بحبال الانتماء، وشدّي وثاقها. دوّني بها صيغة البقاء على نقاء الوجود بأحرف التحدّي .لا تخافي انزلاقاً من تربة واهنة في عمق أعاصير المرحلة. أنتِ تجلسين على صلابةٍ أزليّة البياض. ذاك الضجيج المكتظّ بالعابرين، تلك الوجوه الملوّنه على أرصفة التملّق، المتعبة والمعقّدة، تنتمي إلى مدينة أخرى.

لا تسمحي لهم أنْ يختاروا لكِ عنواناً. أنتِ من يختار صمت إقامتك وعنوان المكان. اِمشي مطمئنّة في شوارع التوقّعات. هناك كثير من المنعطفات الجميلة. لا تفقدي الإحساس بمتعةٍ مباغتة تأخذك سرّاً إلى دفء الأمكنة والنفوس.

دعي التدقيق في تفاصيل الذين خذلوا ورحلوا. لا تتعمّقي في فهم كيف يموتون، ولا تُعلّقي علامات الاستفهام على لوح التساؤلات. برّري لهم توارث الضعف والتنكّر في ثياب التقوى.

اِمضي بمسافة واضحة، بجمالٍ مسالم، يرافقه حزن رقيق. وتيقّني من ضآلة ما تبحثين عنه.

© Photo by Raghid Nahhas

تيمّم

في زمن رِجْس المشاعر، تَيَمّمي بصمت الجراح.

واغتسلي بفائض نُبْلك كي لا يشي بكِ وهم العشق.

تمدّدي على شاطىء السطحيّة فالعمق يفتُك ...

واحذري خيانة الزمان واللهفة.

لا تُبحري بحثاً عن اللآلىء.

لن تعثري إلّا على جثثٍ متراكمة في عالم سُفليّ.

ولن تجني سوى غرقاً وصيحةً يتيمةً تُدْفَنُ في قاعِ الرهان.

عبور

تعايرني بانتمائي إليه. أيّ عمر أنت؟

كنت طفلة. هم من شدّوا الرحال. هم من زرعوا بذور الغربة في صفاء الروح. ولم يحصد مرارة التغريب على بيادر الزمن سوى أنا.

كان الغصن طريّاً. لكنّه كان عصيّاً. جذوري هناك. كانت وما زالت. تئنّ ... تختال ... تزهو ... تفترش البقاء ... تغفو ... وتحلم بي.

تتوسّد الحنين وتنتظرني.

هذا الجسد الذي يمضي من عبور إلى عبور لا يعنيني. هناك أمضي وازداد التصاقاً. تلك الجذور أنبتت لي أجنحةً، وحلّقت بي عالياً. كم زادتني رفعة وقوّة كلّما عثراتي أردتني طريحة الألم.

وكم هي المرّات التي مشيت بها بخطى واهنة! كم هي المرّات التي اهتزّت فيها الأرض تحتي ولم أقع. وكم هي المرّات التي بلّلني فيها الدمع من سحابات الشوق والوحدة.

كانت تلك الجذور أسراباً من الضياء تمضي معي من عتمة إلى أخرى. تفكّك نسيج الخيبات. تضمّني. نتبرأ سويّاً من أكذوبة الغربة. تعيد لي صفائي. تمسح بمنديل أمومتها مطر دموعي. تأخذ منّي الانكسارات. تستبدل ضعفي. تغمر تشبّثي. تسحبني عميقاً. أتوحّد مع التربة الذائبة بالجذور، ويسري عبق الأرض كالطوفان في نفسي، يغرس الأمل على ضفاف الأيام.

ما زلت هنا. لكنّني أقسم: لم أفارق هناك ...

تجلّي

لماذا في الأعياد يزداد نزيف الحنين، ويستيقظ وجع الروح أكثر؟

يغلق النسيان كلّ أبوابه. يلقي بمفاتيح الصبر في هوّة مظلمة عميقة. يُشْرِع الشوق نوافذه على وجوه الأحبّة التي رحلت. تجتاحنا رغبة لقياهم. نصبح كريشة في مهبّ إعصار اللهفة. يصعب التظاهر بأنّ من غادروا لن يسمعوا نداءاتنا.

نأتيهم قبل بزوغ فجر شمس العيد، محمّلين برياحين الحبّ. نجدهم بانتظارنا. يمتزج غيابهم بعودتنا. يتجلّون بغيابهم. يتحوّلون إلى الحضور الأقوى. يتفرّدون بالتحيّة الأولى للعيد. يستشعر نبض القلب عناق أطيافهم.

يصبح الموت الذي رحلوا إليه أنس اللقاء. نلتفّ حول القبور كما كنّا نلتفّ حولهم صبحيّة العيد على سطح الدار، حين كانوا للعيد اللون، والعبير، والفرحة. ننثر دموع الشوق على بياض الأضرحة. نخبرهم بأنّهم الحكايا الأزليّة التي تستوطن الافئدة ...

ونمضي.

آنية العمر

أنتمي لتلك القلوب الرقيقة الصافية، التي لا تحمل في نبضها التكلّف والنفاق. لم تتسرب إلى أوردتها ضبابيّة مدنيّة زائفة ... لأولئك الذين عبروا على دروبٍ عرّشَ على جنباتها غرسٌ أصيلٌ وارفٌ بظلال الانتماء، لم يلفحه هبوب ابتذاليّة رياح الحاضر.

أنتمي لزمن البارحة.

أقيم خلف جدران السنين الماضية، حيث تمتدّ جسور الحنين في الذاكرة. لم تنحن أمام كوارث التملّق والنكران، مبدعة بتمسّكها.

أنتمي لمسافات متألّقة ببريق جرأتها. مشيتُ على امتداد مساحاتها منذ الطفولة. رسمتُ على أشكالها وجه الصبا لأزقّة أحتفظَتْ بوقعِ خُطىً تعشق الحرّيّة، خالية من حصى التراشق، ووحول الكراهية.

أنتمي للحزن الذي تساقط على الوجنات، فأنبت زهر الأقحوان، شقائق النعمان، وبياض ياسمين ملأ شذى أريجه سَفْح الوجود ...

لربيع حياة طغى على كلّ الفصول التي أرعبتني.

إلى واحةِ عُمرٍ ظليلة الحضور، لم يهزمها قيظُ قساوة الأيّام.

أعلم أنّني ما زلت هناك ... لم يهزِمْني طوْقُ الغياب يسدُّ كلّ منافذ السرور. ولم أُطلق عنان النفس خارج تلك الرحاب.

هناك تبقى آنية العمر تزدان بعطر الحبق والنرجس. يتلألأ عليها عرقٌ تساقط كاللؤلؤ من جبين أمّي وهي بجوار تنّور المحبّة، تخبز أرغفة العشق الأزليّ. ووهج شعاع شمس القلوب التي غادرت ينسلُ إلى أوجاع

هذا الحاضر، يُضيء بفتيل صفاء الدمع على شكل الحروف الراسخة، يسكبها سطور طمأنينة تعيد الدفء لصقيع كثير عثراتي ورهاناتي التي أبت أنْ تقيم داخل حدودٍ طاعنة في التخلّي، وكانت وفيّة للأمكنة ...

رغم إصرار الخيانة.

على شفير الانتظار

على حافّة الألم، بمحاذاة القلق، أراقب وقع خطى العابرين، ونثار أشكال بشريّه تتلاشى في فضاء الحقيقة الهزليّة، ودوائر الرياء. أعلم أنّني لن ألمح يداً ممدودةً.

على حافّة الخوف، بمحاذاة الرهان، أُمنّي النفس بذاك الرعيل، يعتمر الوجدان، يخلع همّ العمر، يعرّي عقم هذا الزمن. أنتظر لقاء المصادفات. لن أتّهم الأقدار، وأستعين بالغيب. هم صنيعة الوهن، فتات الأمنيات.

على حافّة الأمل، بمحاذاة الانتظار، هذا الكثير السخيّ بسقوطه، لا يعنيني. أنصت لوقع أقدام، دبيب ثبات.

فلتكن رؤية: ربّما أقواس فرح، أو نيازك صدق، ستعبر على أرصفة الصمت في الجهة الأخرى للمشاة، لتوقظ من اعتادوا موت الحواسّ، وتضرم نار العزم في يباس القول.

على حافّة التمني، بمحاذاة الحلم ...

أنتظر.

الموت

حين يجتاحنا الحزن، نعي حزننا.

لكنّ سعادتنا لا نكتشفها إلّا لاحقاً، في وقت متأخّر.

هناك شيء يفقدني الرغبة في الجدال، والحبّ، والحياة السرّيّة للمشاعر.

يفقدني الرغبة في الترقّب، والتحايل على الأقدار.

لكنّني أشعر برغبة قويّه في التحدّث عن الموت ... مع كائن ما.

يخبرني عن حالنا حين يخطفنا، يجرّدنا من غنائم الدنيا، ويرسم بلاهة المشهد. حين يحملنا على أجنحته البيضاء بصمت ورديّ، يعبر بعيداً عن ضوضاء اللغة وضجيج المفردات.

وجهان

لم أعد أسمع سوى صدى النايات. تَحَوّلَ العزف كلّه أوتارَ حزن. فقدت الحياة رغبتها في الحياة. ألم باذخ الشهيّة، وانتظار يئنّ مهموماً.

انتظار يتوارى خجولاً خلف أعذار مبهمة مشبوهة. شرائط ارتباك تلتفّ على رؤوس كائنات هذا العالم. رسائل الغضب تتهافت. لم يعد يحرجنا الاطّلاع عليها، أو التساؤل كيف يتمّ التنكيل بنا. تناغم القطيع والراعي، أو استسلام لا مردّ منه. لم يعد للوقت حيلة. لم يعد في الوقت رحمة.

كيف يمكن أنْ نتحول إلى خفّة أكثر؟ إلى عجز أكثر؟ كان لنا سابقاً ترفُ أنْ نزفّ خبراً عن خبرة في المكر نلمسها، وشواهد على مآسٍ إنسانيّة نعلنها. حجروا كلّ النظريّات. هو عبور نحو مجهول، لكنّه ليس مجهولاً. غداً يباغتنا البحر في طلب العون، ونتحوّل لشهود زور حين نقدّم قوارب النجاة، ويمنحنا المأوى من أسقط فوق رؤوسنا أسقف البيوت العامرة. ونزهو بحتفنا ووهم نجاتنا.

مذعورة،لا معذورة أنا.

ربّما هي حمّى تقصّي الأخبار، توقظ كابوساً يغطّ في سبات عميق. يرفض أنْ يستيقظ. يعبث بالفراق واليقظة. هجرة شنيعة تمرّ عبر خلايا الذات، تتنكّر لكلّ التفاصيل، تتدفّق وجعاً، تحفر عمداً معالم مشوّهة، وصوراً قسريّة نحو ذاكرة تكابد المعلوم بإصرار، ويصبح قرار الظلم قدراً. والقطيع يساق بعصا تلبس وجهين توأمين: وجه القتل ووجه الرحمة.

شروق يشبه العودة

فرح منفيّ، يحاصره الفراق.

مسجون داخل شرنقة البوح. يتوارى في أعماق الروح بعبق عطر الماضي، وشتلة الطيّون، وأنفة سنين الصبا.

يتشبّث بصفحة الأمس. يحذف فيض عزلة الحاضر وكثرة الطحالب.

يستجدي ولادة أخرى. ينتظر على أعتاب التمنّي. يعزف بقيثارة الأمل نشيج الشوق، والألم، والندم.

ينشطر إلى نصفين. يتمايل مع خطوط الفجر. يتهيّأ شروقاً يشبه العودة، يتأرجح بين الذاكرة والنسيان.

يطرق على أبوابك: وطني.

ظلال إصبع

فلسطين لا تحزني.

لا تجزعي، وليهدأ أنينك.

لا تذرفي الدمع، وتنتحبي، أو تعتبي.

لم يكن رهانك على الوجوه الكالحة والرجولة المخنثة وجرذان النفط، ومن يُبرم صفقات العار ويأخذ الأثمان مذلّة.

فلسطين احزني ...

حين تحجب الشمس عن قدسك ظلال إصبعٍ، إذا ما يُرفع نحو السماء تلوح عليه بيارق نخوة، بسخاء عشق، يرسم بحبر الشهادة على وجه الأفق والمدى دوائر الرعب على خرائط وجه المغتصب، وكلّ قَوَّاد من المحيط إلى الخليج.

اطمئني ...

خصرك الممشوق يحتويه شموخ إصبع: ملؤه الحقّ والثورة والغضب.

6 كانون الأوّل 2017

تمّوز

تمّوز يختال من بريق العزم في عينيكَ
يحيك من خيوط النصر
وعدٌ ...
يفترش سجّادة صلاة.
محرابٌ ينتظر
بدرٌ ... يسطع ... يركع
طِيبُ النهج يفوح
غَيثُ الحكمة
نشيدُ الأحرار.
تنصت إليكَ
مآذن الجوامع
أجراس الكنائس
تراب الأرض
ينتظر ...
ويخشع.

المعراج

من الذي يوارى الثرى؟
أكمل معراجك نحو السماء
حيث قافلة من صَدَقُوا
ما عَاهَدُوا الله عليه
تنتظرك ...
حان وقت الوضوء بمطرِ نهجك
بطهر كلام العشق
وسجّادة الصلاة حيث عبرتَ
على امتداد خارطة
القهر والأحزان
والقبلة ...
حيثُ ولّيتَ وجهكَ.

3 كانون الثاني، 2020

ثمانية عشر نجماً

في ذكرى استشهاد الشاب حسين نعيم، شقيق الكاتبة، يوم 27 نيسان 1996، نتيجة لعمليّة "عناقيد الغضب"، التي نفّذها الكيان الصهيونيّ في جنوب لبنان

ذاك الجنوب عصيّ!

مداده: قوافل الأطياب المخضّبة بعطر الشهادة.

سراجه: نبضُ قلوب يتربّع على عرشها النخوة والإيثار، تتحدّى عناقيدَ غضبهم، أصولَ تسويق الجريمة، احترافَ الغيلة، صياغةَ الجبن، وتقيّؤَ قرارات الهوان.

كيف تنسى التربة سقاية العاشقين ...

والوصال.

أخي،

أتشبّث بأهدابك الملاذ، وأشهد أنّك من سلالة الأتقياء التي احتجّت على الخيانة، وغيبوبة العروبة. بقدمين ثابتتين، سحلت زيف جبروتهم.

ظلّك ملاحَقٌ برعبهم، بضحكات أسراب من الأطفال، بعنفوان وقوفك أمام هجرات القرى.

صوتك يبحث عنك في الأودية، نداؤك المجلجل للأحباب، نظراتك المتشبّثة بالأمكنة تعيد خلق أشكالها، الشجر المحروق، الأرض، الإسفلت، الأسلاك، البيوت، وتأويل غيابك ... الأبهى حضوراً.

تحمل بين كفّيك ثمانية عشر نجماً، تشهرها سيفاً، تتوالد أنجماً من رحم الانتماء، تقدّمها قربان وفاء على مذبح الوطن ...

وتمضي.

سلام ... لموتك الرائع. سلام لرحيلك اليانع، لقليل عمرك الكثير، لوجعك أبي، للهيب الدمع يشبّ حريقاً من قلبك أمّي، لتينك العينين حين أَغمَضهما عشق الأرض: سكن في حدقيهما كلّ الوطن.

اليمن السعيد

من أرغم الرياحين على البكاء، وكيف لا يذوب الثلج خجلاً حين تدوس عليه أقدام الطفولة الجائعة؟ ماذا يحدث للسماء حين تبتهل إليها أياد رقيقة من أجل كسرة خبز ونقطة ماء؟ أتمطر سحابة الغضب دماً؟ قهراً؟ أملاً؟

أيا ملك الكراهية والأحقاد والمكائد! يا سلالة العفن ونتن هذا الزمان. ما هذا الشبق؟ ما حجم هذه الوضاعة في تنكيل جراحهم البريئة، الصامتة، الأبيّة؟

لن تعي النبض اليمنيّ. مثلك لا يعي. أيّ وجع هذا؟ أيّ سواد قاتم يستوطن ضمير الأمّة. فالإنسانيّة هُتك سترها. وموموس حقوق الإنسان تخطّ بريش عظامهم النافرة مهزلة أمم متّحدة. متّحدة على إذلال إرادتهم. على إبادتهم وتجويعهم. تكسو عري المواقف بأوصالهم المرتعشة.

طوبى لتلك الطفولة الورديّة الموؤدة. لتلك العيون الذابلة. للآمال المعلّقه على جدار الزمن. للأجساد الطريّة التي رحلت، والتي على أعتاب الرحيل. لذاك السيل من الأحزان.

رغم كلّ هذا الطوفان من الخيبة والجبن والتواطؤ، سيبقى ميراثكم وفخركم: اليمن السعيد.

نعش المذلّة

انتظر يا صغيري.

ابتعد قليلاً عن باب المقابر. مدّد بحصار جوعك الوقت أكثر. أجّل احتضارك. رايات الخلد لا تليق بسواك. الحكمة يمانيّة يمان. ولتشهد كلّ الصحارى العربيّة أنّ كلّ ما عداك هراء.

أخجلُ من جوعك المتيقّظ. أعتذرُ من عظامك النافرة. أنحني لأوصالك الملتوية. تفضح عري الأنسانيّة. تعلن لذاك الملك المهووس بتشويه الجثث، ولعق الدماء، أنّ جذور طفولتك راسخة. وأنّ جبروت تجويعك سيقضّ مضاجع عرشه. رقّة جلدك ستنال من طغيانه. دقّة عظمك ستخدش الوجوه الكالحة، وتفضح مواء أمّة تدّعي الزئير والصهيل.

انتظر يا صغيري. من حقول المجد والثبات اليمنيّ ستزهر سنابل الأحرار فيضاً من العزم يذري رماد الهزيمة على عاصفة العار، وشبق وجوه تحالف الغدر والنفاق.

انتظر يا صغيري. القصاص آتٍ، على أجنحة فؤادك الرقيق سيعبر. من لهيب جمر الحياة القابض عليها سيعبر.

القصاص آتٍ، ومن براثن تجويعك سيعبر.

انتظر. لا يليق بك أنْ تنهزم.

الهزيمة لعروبة مسجّاة في نعش المذلّة تحتضر.

منازل الأحداق

أرضِعي صغارك رحيق صدأ الأبواب التي أُوصدَت.
هدهدي سنين الطفولة على حداء أنين الأقفال والمفتاح.
ارسمي بسواد خطوط الكوفيّة وبياضها على أشفار العيون خرائط الجهاد والأمل، حتّى لا يسكن في الأحداق غير حدود الوطن.

جبل عامل

حيث تولد، لا يرضى المكان أنْ تكون أقلّ منه شأناً.

يأبى أنْ تمشي إلا مستقيماً، ووجهك نحو الشمس. تحتاج للبقاء شامخاً كأشجار النخيل متدليّاً بثمار النصر.

هناك الرجال عباءة الأرض، وحصنها المنيع، وصولجان الكرامة.

وفي تلك البقعة دوّار عشق الوطن يواصل سعيه الأبديّ مخرزاً في العيون الشبقة.

جبل عامل، ذاك الفيض من الحبّ، وأسطورة المجد.

شتلات تبغ جنوبيّة

أيّام قليلة وأعود إليكَ. هي عودةٌ مؤقّتة.

لكنّني أحمل حنيناً دائماً، مزمناً، متعباً ...

أعلم أنّك لست الأفضل والأعدل بين الأوطان. وبفضل أيادي السوء، أصبحت أشدّهم قسوة. لكنّني أحبّك الأكثر.

أحلم دوماً بولادة الرحمة القيصريّة من رحم المعاناة، مع يقيني أنّ العقم ليس فيك.

أعود وأغضّ الطرف عمّن أسدل عليك ستائر قاتمة في ظلمها. أهانوا كبرياءك. شيّدوا بروج جبروتهم من عرق كادحيك، داسوا على تعب سنين عمرهم، نكّلوا بجراح معاناتهم، اغتسلوا بنزيف قهرهم.

أدير ظهري كي لا أرى قباحة وفداحة ما فعلوا. أتربّع على ترابك الغالي، وأنصت إليك: تخبرني عن حكايات من احتضنوا شتلات تبغك الجنوبيّ وكروم الجرود، وعن أنامل العشق اللامشروط كيف رسمت بمداد الدم لوحات المجد سياجاً على حدود الوطن. تخبرني عن معاول الفجر والزنود السمراء تلفحها شمس الحريّة، عن العيون التي تكحّلت بالحقّ والبطولة، وقاومت مخرز التسلّط والشّر، وأطبقت الجفون على صورة الوطن. سَكَنَتْ وجدان أحرار العالم.

أعود لأقبّل الأغراس والجذور وزهو الحدود. أعانق مواطىء أقدام من عبروا، وثبتوا، ورفعوا رايات نصرهم على أعمدة نصبها غزاة أذلّوا أمّة بأكملها.

أعود لألمح طيفاً من سماحة العشق الأبديّ، يرسم على حدود الأرض والسماء خطوط الكبرياء في فضاءات التحدّي، تزدان بكلّ أشكال العزّة والجمال.

صافية كالنار

في زحمة هذا السباق: كلّ النفاق.

في حضرة حياة تحتضر أتفرّد بشوقي إليك، التحفك، وتضمّني. نهرب سويّاً من وهم وطن آخر. نختبىء تحت ظلال أيّام عبرت. أستعيد طفولة أودعتها عندك.

أعترف: لم يرحل معي سواك مذ رحلت. دعنا نستجدي الذكريات. نغزل قمراً من خصلات شعر أمّي الأبيض. ونضيء دروب العاشقين من قنديل عيون أبي. نغفو على همس صدى صوت الأحبّه. ألقي برأسي المتعب على مساحات انتمائي إليك. وأخبرك عنّي. عن الأجنحة المنكسرة. وهذا الجسد المثقل. عن الزنزانة الكبرى، والجدران القاسية. عن الشرفات الخالية، والنوافذ المغلقة. عن الحنين المدفون تحت الوسادة. وعن سوطٍ حريريّ الملمس: يمزّق الروح. ينتحل من الأسماء أحسنها. يتقن فنّ كتم الصراخ والأنين عن صدأ السنين، وقحطها. عن القلب المملوء رعباً، يبحث عن السكينة في عالم الذهول والضياع. عن قيثارة رفضٍ تحوّلت لمعزوفة يوميّة. وزهر تحوّل فحماً في آنية العمر المُهجّر.

دمع تحجّر في المآقي. ووجه يبست عليه ملامح الوطن.

أخبرك عن الشمس المطفأة، حيث الأرض ليست كالأرض. والزمن أسطورة خرافيّة.

أيّها المسافر بي ... العابق بأنفاسي أريجُ زهرِ ليمونه، والطيّونُ. أرهقتني. خذني إليك، بكلّ أحمالي ... أوزاري ... ونكراني ... الممنوعة من الاقتراب، العاجزه عن الابتعاد.

خذني صافية كالنار.

سئمت نصف حياة، ونصف موت.

وكلّ هذا السباق ... والنفاق ...

طاحونة

أحتسي الوقت تحت ظلال عراء النفس: قصص تتأرجح بين الذاكرة وزحمة الأقدار.

أرتشفه في سكون ليل طويل، رغم خوفي من عتمة تخافُني.

رعب يزهر أقحواناً.

يزهر لهفة، وأنفة.

يهبني نسياناً ...

أواعد أرواحهم. أُشْرِعُ نفسي للريح تلفحني. أنتظر مطراً يهاجر على أجنحة غيمة ... بيضاء ... تروي ظمأ حنيني.

كيف أنتظر؟ وأنا كطاحونة تدور عكس الرياح.

الدمع لا يحجب رؤية الغياب.

تساقَطْ ...

تتراءى لي ملامح امرأة على شاكلة الوطن.

سحاب حزن يحمل شوقاً ... حبّاً.

ينبت قمحاً ...

فوق بياض يديكِ أمّي.

بقايا صوت

سأعود.

وعندما أخطو نحو الدار أعانق تلك النظرات حيث تركتها معلّقة على جدران زماني. وسأجمع ابتسامات أودعتها خلف أسوار الحديقة تستريح في أحواض الحبق والنعناع، حيث بصمات أنامل أمّي رنين ضحكات يتلألأ على زهر القرنفل، ويتراقص على قطرات ندى بياض الياسمين.

هناك صباحات المنتظرين والراحلين ...

سأغرف، من رحيق الخزامى والريحان والمنثور، باقات عطر أنثرها على أطيافهم التي غادرت، وعلى بريق الشوق في عيون شاخصة، طاعنة في الوفاء. سأعود وأرتدي من زهر البيلسان شالاً بلون الشمس. أداعب زهر شجيرات الليمون. أستنشق براءة عطره الفوّاح. أستعيد ملامح أكفّ عالقة على أغصان شجرة التين، ونظرة عصفور يتحدّاني: يسابقني ليتذوّق حلاوة ثمارها قبلي.

أُقبّل هذا الجمع كلّه، بكلمة، بجملة. أعزف على أوتار الربيع لحنَ شجنٍ من دبيب مطر نيسان. أجمع بقايا صوتي. أدندن بصدى موّال. أُنادي عليكِ. أعانق ضريحك أمّي.

أسكب فوقه اعتذاري وشوقي.

مباغتة

يباغتني رحيل مفاجيء، حين يطرقون على باب القلب. يعبثون في جدار الروح. تضيق مساحات العبور وتغادرني اللهفة.

تخلع يد القدر أبواب الرحمة عن منزلي المسكون بالترقّب والدهشة والأمل، وتلقي بحصى القهر في بحيرة أحلامي.

أتقوقع داخل نفق الأحزان. ألملم نثرات خيبة تحتويها عزّة النفس. أخلع كلّ سنين العمر، والنضوج، والاتزان.

أمدّ يدي لرداء طفولةٍ أودعته في قاع هوّة عميقة الدفء في الوجدان. أرتديه وأهرع اليكِ.

ألقي برأسي المتعب على صدركِ أمّي.

ثمة نساء ...

تأتي من حقول الياسمين. تُعَرّش على جدار الوقت بصدق بياضها. تُطَرّز الأريج حبّاً على ستائر عتمة الليل. تملأ كؤوس فجر ولادتنا من فيض ندى نقاوة سريرتها.

وحين ترحل، تمطر السماء حزناً على الجدار والليل والفجر ... وتندب الحقول غيابك أمّي.

عندما تعبر في سماء العمر سحابة ذكرى محمّلة بضياء عينيكِ أمّي، أمشي حافيه أغتسل بذاك المطر. لا جدوى من الاحتماء بمظلّة الكلمات. تنمو البذور، وتعود البدايات.

عذراً أمّي

عذراً أمّي. باغتني الواحد والعشرون من شهر آذار هذا العام.

كنت أتلهّى بمراقبة مسافات مصرفيّة تعمل على تقطيع أوصال العالم، وجشع استفحل بقوى عظمى، تخطّط الحروب والمجاعة، ولم يكتف ببعض الدول. يطمح إلى السيطره الكليّة على العالم بأسره. الكلّ يواري فعلته الشنيعة، ويلقي على الآخر وضاعة جريمته الجرثوميّة. جرثومة تتربّص بالإنسانيّة: تزلزلها وتوحّدها، ويصبح العالم بأسره، بكلّ جبروته، هلعاً يدور في قبضتها.

تعبر كقطار سريع يدهس الأحلام. يقضّ المضاجع. يقصّ أجنحتنا التي تجبّرت وعلت وحلّقت بفضاءات اغتصبتها.

جرثومة تطفىء بصقيع ملامحها توهّج الحياة، وتذري على المقابر رماد الوجود.

لم يعد للوقت قيمته: فقد البريق. لا وقت لنا لنشهد ما خلّفته أعاصير الرعب من دمار في النفوس. جرثومة اقتلعت، وفي مسافة زمنيّة بسيطة، أشجار أحلامنا وواقعنا، وألقت بها في غياهب التوجّس والريبة.

تُهَمٌ تُلقى جزافاً. كلّ مستبدّ يلقي باللوم على الآخر، والكلّ سواسية في مركب الذعر والموت.

عذراً مرّة أخرى يا أمّي: أطلت الشرح عن مهزلة كونيّة تمرّ بين ثناياها كلّ الصفقات الموبوءة، ليرتدي العالم وجهاً أكثر قبحاً.

ارقدي بسلام يا حبيبتي ... حيث أنت. عالمنا تفوح منه رائحة القتل والغدر والخيانة والجشع والتسلّط.

وكلّ عام ووجداني تحت قدميك الطاهرتين.

آذار 2020

كتابي

عندما يحتفي العالم بيوم المرأة العالميّ، ويتسابق الجمع بتعداد الانجازات والعودة للتاريخ، وإلى أوّل مظاهرة نسائيّة قامت بها أميركيّات، وعن أوّل يوم وطنيّ للمرأة ... أحمل بساطاً مزركش الألوان، صنيعة يد امرأة، أفترشه في غرفتها، أجلس عليه، أسند رأسي على حافّة السرير حيث كان موقع قدميها، تستريح فيه من عناء التعب.

وأسرح بمخيّلتي نحو امرأة كانت تصحو مع بزوغ خيوط الفجر، تحيك من نسيج سنين عمرها شالات دفء مطرّزة ببياض الصبر، ورقّة الصمت، تلفّها حول أجسادنا وأرواحنا في ليالي الشتاء الباردة الطويلة.

امرأة كانت تهدهد سنين طفولتنا على أنغام حداء ينصهر مع حزن دفين، ينساب مثل أنين الناي. تتأرجح أهدابنا على حبال صوتها الشجيّ، ونغفو.

امرأة، كغصن رطب، تميل مع تعثّر كلّ واحد منّا. لا تكسرها رياح النزق والرعونة التي تعصف بمراحل نموّنا، بل تزيدها ليونة واحتواء.

امرأة لغز! مفتاحه سرّ بأرقام لامتناهية من التضحية، مخبّأة بعناية في عمق وجدانها.

امرأة ترسل من تفاصيل فراستها أسراراً ينسلّ نورها على متاهات ضعفنا وارتباكنا. نورٌ يتدفّق قوّة، ويوقظ فينا الأمل. تُحوّل صحراء خوفنا إلى حدائق آمنة، يزهر فيها الفرح ويفوح أريج السكينة على أسوارها.

امرأة كانت حين تشرق على ثغرها أسطورة الرضا، يضيء الكون كلّه. يرسم ذاك الوجه أجمل قصائد الحبّ. تخجل معاجم اللغة من تفسير رموز كلماتها التي تتنفس من رئتي العشق، وهي التي لم تستطع يوماً جمع حروف الأبجديّة.

امرأة رحلت، وأدركتُ بعد رحيلها أنّ هناك بكاءً يوميّاً بلا دموع، وصراخاً يمزّق الحنجرة دون أنْ يسمعه أحد.

صاحبة الصوت الدافئ الساكن في مسمعي، ووسادة الحلم، سرّ الحياة والموت معاً، خير جليس في الأنام: كتاب اسمه أمّي.

تلاوة

لا أعلم كم مرّ من الزمن منذ غادرتِ، لكنّني أدرك أنّ نسائم رمضان شبيهة بعطرك أمّي. لرحيلك لون أيّامه الأولى. لبزوغ صباحاته بريق سحر هو امتداد لشمسٍ كانت تشرق من خلف تلال عينيكِ.

كيف الملم هذا الشوق؟ ياتيني بلا موعد، يتربّع على مقاعد الأمكنة والتواريخ، يكسر شوكة المسافات، يحلّ ضيفاً على مائدة الفراق، يشاركني أطباق الذكرى والتأمّل.

هذا الحنين يؤلمني، يهزمني ويؤنسني، ينتظرني وأنا أتلو قرآن الفجر، يغمرني، يلاطفني، يجلس معي على طاولة الإفطار يسامرني.

أمّي ... تجتاحني نوبات من الضياع، تهمس في أذن تطرّف فقدي، تحثّني أنْ أسألك أمنية طليقة، تتنقل على أثير لا تحدّه قوانين ولا أقدار. أحتاج لملامسة روحك، لمكان صغير قربك بين دفّتي الحياة والموت. أستعيد من سكرات صمتك الأبديّ حضنك، ولو لبرهة من أمان.

وبعدها تمضين.

الدهشة الملحّة

لا تصدّق يا أبي أنّني كبرت، وأنّ تلك الدهشة قد غادرت. كلّ محاولات الزمن فشلت. لا تصدّق بأنّ ضجيج الأبناء، زحف الأحفاد، السنين العجاف، وندرة الوفاء، قد نالت منّي. لا تصدّق بأنّني أقبع خلف ارتجاجات الهزائم والخذلان.

تلك الطفولة لم تغادر أحلامي.

أحمل مظلّة الأبوّة حيث أمضي. كلّما اشتد سعير الظلم، ألجأ إليها تقيني ناره المؤذية. تُوْقِفُ زحف تصحّر الجحود. لم يكبر سوى حنيني إليك، لدفء ذراعيك، لبريقٍ من عينيك العسليّتين، يضيء على مساحات عصيّة على المغادرة. لم تستطع أنْ تستدرجها أطياف مدنيّة زائفة. لكنْ صدّقني حين أمدّ يدي لقطاف سرّ ضحكاتنا، وبوح روح أحلّق به، في زحمة الأشياء، أتوسّد كنوز الذكرى لأستعيد نفسي، وأنسى أنّ لهذا العالم وجه آخر.

أبي ... أخذتُ معك ركناً على شرفتي البارحة. وضعت رأسي على ركبتيك كما كنت أفعل حين يباغتني حزن مفاجىء. أخبرتك عن بلاهة فرحي ووهم السعادة، وعن استسلامي للأيّام وأقدارها. همست لك بدمع العين عن شوقي، وعن سرّ لقاءاتنا حين يشتدّ بي الحنين للمزاح، ولما هو جادّ في نقاشاتنا التي كانت تقطر عذوبة لنغم صباحاتنا، وللأمثال والحكايات نتوارثها في جلساتنا. كنت تصغي وعيناك العسليّتان الغائرتان

تتقدان حبّاً وسلاماً. غمرتني بوشاح نورٍ صنيع أبوّة أتحرّق لدفئها. أضأت على أعطاف نفسي، وهدأ ضجيج الوحشة في أركانها.

آه لو تعلم كم تحرّيت في عيون جميع الرجال الذين صادفتهم سرّ ذاك الشعاع الذي كان ينبعث من عينيك فلم أجد جواباً.

تلك النظرات كانت تعبر محيطات، وصحارى، ووديانا، وتستقرّ على وجهي كلّما خذلتني خشونة بشريّة. نظرات كانت تنثر الدفء على صقيع أيّامي، تحوّل يباسها إلى واحات خضراء.

الغائب الحاضر دوماً! مصابيح ذكراك كانت تطفىء وجود من سرق براءتي ودهشتي. لم يشاركنا ذاك الركن سوى أريج شتلات حبق أزرعها، لياخذني عطرها إلى أنامل أمّي.

يخلو المكان من الجميع: يمتلئ بك.

أبي، أحضن ذكراك طيورَ حنين تهاجر نحو شجرة اللقاء.

كأنّي لم أرحل

وأخيراً عدت إليه ...

هرعتُ بصخب الطفولة، وبراءة الصبا، وعتب السنين الطاعنة في الألم. انسلخت منّي تلك الأنا التي كتمتُ أنينها على مدى رحلة الغياب، وارتمت في أحضانه. دبّت في داخلي ومضة من حياة سبق أنْ نسيت ترانيم شدوها. عانقت حقوله حقلاً حقلاً. سامرت سكون أوديته، وغمرت في دفء شمسه رأسي المتعب، وألقيت بجسدي المنهك على رحابة سهوله.

همس لي بتراتيل فردوسيّة: كم أشتاق مدى حضني إليكِ.

افترشت رمال بحره. ألقت لي السماء من علياء زرقتها وشاحاً التحف تعب السنين. وداعبني نسيم شطآن اللهفة الذي طالما كان يغويني.

قالوا لي مراراً وتكراراً: بين ما تختزنه الذاكرة من صور وجماليّات، وما تلامسه أيدي الحقيقة، صخرة صمّاء عليها تتحطّم أسطورة وهم عشق الوطن. لكنّهم لم يعلموا أنّك مصفّى بقطرات إلهيّة الوجد، أبديّة السحر والبقاء.

سألني بلهفة عن نُدُب القهر المرسومة على وجهي، وعن سرّ الدمعة الساكنه في أحداق غربة عيوني. حدّقت به. تعثّرت الأجوبة كشجرة ليمون تساقط زهرها بعتب حين فاجأها السؤال. كان في صمتي تدفّق أنهار الحنين، وعبق أودية الشوق، ومروج الحزن.

عاتبته: ألم تسمعني حين كنت أتوسّل إليك أنْ تقتلعني من تلك الأقاصي، وتعيدني بجوارك عصارة نبتة طيّون تداوي نزيف الشوق، تلقي بي حيث شئت على مساحات انتمائي إليك؟

عانَقَ عتبي وألمي. مسح بأنامل عطفه على وجهي، وقال: "انظري جذورك هنا لا تزال يانعة، أيّام غيابك كنت أرويها ندى فجر وصالك، لتبقى مشرقة وصافية، سكبت عليها ماء ورود الأرض وأريج بياض نرجس انتظارك. إليك أردّ الأمانة ... التصقي بي أكثر وتوحّدي."

اقتربتُ منه. سرى بداخلي طيف وجوده. عانق روحي. أيقظ غفلة السنين، وعادت تلك الصبيّة، التي حنّطها الوقت، تتسلّل بين مسامات الزمن. سرت في عروقي رحلة الحياة بكلّ الأعاصير الجميلة. عبرت الفصول كلّها في لحظة كونيّة. احتوتني، ومضت بي على عرش فرح سرّيّ.

وهج النقيض

في داخلها فضول أنثويّ لجعل ذاك الرجل يخلع رداءه المبهم ويلقيه، وإرغامه على الاعتراف بأنّ للأيّام ألواناً مختلفة، فيها يكمن سرّ الحياة ونبضها.

تلك الصور التي يرسمها أمامها من سعادة وقبول وانسجام، تربكها، تدخلها في حالة ذهول، رغم قوّة ذاك الانجذاب والتأمّل. تراه كمن يتغنّى بنور الشمس ودفء حرارتها وهو يغتسل بماء المطر في يوم عاصف. رجل يهزم كلّ الحقبات ويمضي، لكنّ طفولته تهزمه. يحمل قلباً نصفه مغلق، ووهْم فلسفة يخلق لها أجنحة تحلّق في فضاءات مستسلمة، تعكس عبثيّة تلقائيّة. لا تشكو، وتتقن فنّ كتم الأنين.

أمّا هي، فتسمعها همساً حزيناً كحفيف أوراق الصفصاف. تئنّ دون ارتياب. أنين تغلّفه أثواب الصمت، وتعاقب الخيبات. ذاك الحضور الهادىء والاستعلاء على الألم، لا ينساب إليها. لكنّ تلك الصيغة التساؤليّة والنبرة الهزليّه تجعل مجالسته سحراً لم تعرفه من قبل.

هي التي تضج بالموانىء والفصول، تراقبه وهو يلملم سنين العمر. يروي ضجيجها كأنّه يفترش أرض مقبرة نائية، لا يعكّر صفو سرد ضجيجه شيء.

رجل لا يشبهها، لكنّه يستوطن الوجدان. قريب منها كوهج النقيض. تستعير من شروق نهاراته ومضات تنير عتمة الليالي، وتسدل ستائر أمومتها على إيقاعات خوفه المدفون. ترسم بريشة فرحه مساحات جميلة

تزيّن ملامحها الحزينة. لا يتدبّر أمر الأشياء. لا ينتظر على بوّابة العمر عبوراً. يجلس طويلاً على رصيف الذهول، بلا شغف. يشعل سيجارة الأمنيات والأحلام، وينفث دخانها في فضاء اللامبالاة.

تراقب أشلاء دخانه دوائر فراغ، وفي كلّ مرّة يشعل تلك السيجارة يحوّل قلبها لمطفأة. يتلاشى دخان صمته، ومعه ضبابيّة الرؤية. لا جدوى من الاختباء. وحدها تَقاطُع الأقدار تعلم معنى المسافة بين أنْ تقيم داخل الذات، أو أنْ تعبر منها. بين أنْ تختار امرأة تحتويك، تغرس في تربة الغموض بذور اليقين، أو أخرى تدوس بفضولها الأنثويّ على ردائك المبهم وتمضي.

تلك الليلة

كان ثقل تلك الحيرة الجاثمة على صدرها يضغط بتجبّرٍ يعجز أمامه جسدها النحيل الملقى على كنبة في عتمة تلك الليلة الموّشحة بضوء قمرٍ خيوطُ بريقه الفضيّ تنساب برقّة تغلّف نفسها الحزينة.

بتردّد ممزوج بالكبرياء تناولتْ سمّاعة الهاتف، يدفعها حنين مرتعش يسري رعباً في أوصالها. صمّتْ أذنيها كي لا تصغي لنداء العقل، ونبرة التأنيب، على تدفّق مشاعرها التي لم تعد ترغب تجاهلها أكثر، والتي سلّمتها مفاتيح التحكّم بأحاسيسها.

في داخلها خدر يدفعها نحوه. قالت أوّل ما خطر في بالها. لم تبذل أيّ جهد في العثور على الكلمات.

♀ مرّت أيّام عدة منذ تخابرنا. ربّما أشهر. لم أعد أحسب الزمن. ها أنا أقدّم على مذبح الحبّ قربان كبريائي. اشتقت إليك ببساطة الاشتياق وعمقه وصدقه.

أجابها بصوت متخشّب يفوح بكلّ إفرازات القسوة.

♂ تشتاقين؟ الشوق لم يعد من مقتنيات العصر، وتجدّد ملامحه. زمن العلاقات الحميمة انقضى أيّتها الحالمة. استيقظي، نحن في زمن تلهث أيامُه خلف المصالح والمكتسبات ... وال...

♀ عذرا سيّدي لقد أخطأتُ رقم الهاتف بالتأكيد. يبدو كأنّني أكلّم رجلاً آليّا من إحدى أجهزة العصر المتطوّرة. لكنّ قصدي رجلاً آخر يضيء

قنديل الحبّ من زيت مشاعره المرهفة، له جاذبيّة فارس الأحلام، وسخاء حارس العواطف.

♂ مهلاً، لا تقفلي الخطّ وترحلي. أنا هو من تقصدين. أعلم أنّي بنيت لكِ صروحاً من اللهفة والحنين، وحطّمت لك صوامع ومعابد من الابتهال. أخبرتك الكثير، تركت نُدُباً في القلب، ونسيت أنْ أذكر لك ذاك السَلّ في زاوية الغرفة، أو زاوية الوجدان. لا يهمّ. كنت أستلف منه بقايا مُثلٍ، وفتات مبادىء ألقي بها إليك لابرّر عزلتي وكآبتي. والبارحة توحّدت مع ذاتي. نفضتُ عنّي كلّ ما استلفته من ذاك السَلّ. سقط الحلم فوق أشلاء المشاعر. كان لباساً ضيّقاً يخنقني. تحرّرت من عبء ذاك الوهم الذي أسميناه حبّاً. ووجدتني كالطير طليقاً أنعم بالتفلّت. لكنْ ما يعكّر صفو حرّيتي جناحاي المكسوران. لا أعلم أيّ الفضاءات هزمتني، وألقت بي بلا جناحين.

♀ إذا كانت أسرار ذاك الحبّ نفايات استلفتها وألقيتَ بها، وقدسيّة علاقتنا وهماً تخلّصت من براثن هيمنته، ماذا عن دموعكَ التي ذرفتَ على صدري وأنت تستعرض فرضيّة إحداث فراق يعقبه لقاء؟ أكاد ألمح دموعك بعين خيالي: كيف كانت تضيء صدقاً، وتنساب مثل قطرات الندى، فالدموع أصدق من الكلمات، وأعمق من سبك الحروف والجُمل.

♂ كم تزعجني سذاجتك يا امرأة! تخطّ حكاياتها بريشة دواةٍ حبرها من فيض القلب، ونبل إيقاعه. استيقظي من أسطورة لقائنا الصدفة، وإيقاعنا المتناغم. سمّها الرغبة: أمنيات طليقة، مراسمها التنقّل على درّاجة العلاقات الهوائيّة: أمضي بلا جذور تثقلني، بمباركة شهرياريّة، لا شاعريّة اللغة تهزمني، ولا لهيب الشوق يذيب جليد غفوتي.

♀ ماذا عن جراح كلماتك التي كانت تنزف عندك وتقطن بين أضلعي، أضمّدها بخفق نبضاتٍ حانية، أتدفّأ بها كلّما ساورني صقيع اليقظة، ولسعتني سياط التساؤل؟

أيّ عذاب هذا الذي يحيط بنا حين نعي أنّنا نخوض جولة من مواقيت سطحيّة، في حين كنّا نظنها تناسل إصرار وحبّ وصدق؟ وينتهي بها المطاف فائضاً من الثرثرة، تحجب عنك بسرعةِ الصدمة تفاصيل من عرفته زمناً يتحوّل بلحظة إلى ظل باهت سرعان ما يتلاشى.

ولا يبقى سوى بوحٍ من خيوطِ نور القمر الفضيّ يغمرها، وتغفو.

مبارزة

قالت له بنبرتها الساخره:

ليس هناك أفقر من رجل يتباهى بأنّ الحبّ لم يطرق باب وجدانه، ولم يجتاحه العشق. وأنّها تشفق عليه حين يتغنّى بمحطّات عمره الخالية من مقاعد الحنين، شاهراً سيف قدرته على قطع حبال الانتماء، لا يلتفت إلى الخلف، يتغنّى بمظاهر وحدته، لا يولد من طعنة، لا يتقاسم أنفاس اللهفة، يغادر الضجيج والتحدّي ببساطة تحيّة الصباح.

قال لها ممازحا:

ليس هناك أكثر مرارة من امرأة تستضيف ماضيها. تستعيد لحظات من الزمن تفرشها على مقاعد الوقت. ترتّب وسائد الذكرى بأناقة الحلم. تنثر على شرفات العشق أزهار النرجس. تروي جذورها من فيض الأنوثة. تعتني بدفاتر الأمس. تمسح عنها غبار النسيان. تستعير من خيالاتها أقلاماً ودفاترَ ووروداً وشموعاً. ترسم مساحة ضيّقه وسط ازدحام الحزن والخوف، وتسكنها بوهم فرح غامض.

بين مرارتي وفقرك سخاء، ووجع على أرجوحة القدر، وباب مغلق خلفه أسرارٌ لن أعترف لك بها.

أنشودة الصمت

هو عصر يوم خريفيّ بدت فيه الأشياء كلّها هادئة.

كانت تفترش أعشاب الحديقة الخلفيّة لمنزلها، وبرودة التربة تسري بخجل نحو جسدها الملقى على بساط أخضر، صنيعة طبيعة مفرطة بجمال تعاقب فصولها. وحيدة هي رغم الجميع من حولها. دائمة الانزواء في دائرتها. متفرّده بخصائص خياراتها. لا تستسيغ أغطية النفاق وأوشحة التزلّف. ذاكرتها مزدحمة بأحداث وصور متنوّعة من مشاهد القهر والألم.

كم هي المرّات التي حاولتْ فيها التقرّب من دوائر الغير كي لا تكون حالة نكرة، لكنّها سرعان ما تعود لتلك الأنا تلبسها بطمأنينة. كم حاولتْ أنْ تسير مع مواكب السائرين، وتصفّق مع المصفّقين، تضحك مع الضاحكين، وتشدو للبلاهة والاستسلام. أنْ تقول نعم حين يجب أنْ تصرخ لا، وأنْ تمسح بلا مبالاة على مخالب حفرت بالصدر ثقوباً عميقة، وأنْ تنشطر لتقلّل من خسارتها.

لكنّها لم تستطع. وبقيت سجينة مُثُلها. لا تقبل أنْ يكون المبدأ ضيفاً خجولاً يأتي به الصباح ويبعده المساء. لم تستطع أنْ تحلّق في فضاءات القسوة والتسلط، فضاءات مغلّفة بشعارات برّاقة تحجب الصدق وتغتاله عند أوّل منحنى. لم تستطع أنْ تكتم صرخة تسكنها، تستقرّ في أعماق نفسها، فهي كلّما صمتت، سمعت صراخ الصمت أقوى من كتم الأنين، ونوبات تطرّفه.

تذكر مرّة، في إحدى رحلاتها إلى الوطن الذي تتنفسه مساماتُ جلدها، الوطن المستيقظ دوماً في حنايا الروح، يسكنها أينما حلّت رحالها في البعد عنه، أنّها كانت برفقة من توهّمت أنّه توأم الروح، وتجرّعت بتوهّمها أكثر الكؤوس مرارة وقلقاً ومتاهة.

دعاها لارتشاف فنجان قهوة في مقهى اعتاد ارتياده منذ كان صبيّاً. تردّدت في قبول دعوته، فجميع روّاد المقهى من الرجال. كانت تشعر بالإحراج لمشاركته الجلسة الذكورية وهي الأنثى الوحيدة هناك. لكنّ إصراره على سموّ مكانة الموجودين من حملة الشهادات والمثقّفين أغراها بتقبّل دعوته. أخذت مكانها في زاوية المقهى، وسرعان ما سقط عن ناظريها برقع الحياء الذي دخلت به متردّدة.

أخذت تراقب مشهد الأرجل ونعالها تمتدّ بلا حياء نحو أيدٍ تلتقطها وتمسح عنها القذارات. هي التي لم تلمح ماسح أحذيةٍ واحد في سنين غربتها الطوال. هم المثقّفون العاطلون عن العمل. الجريدة كالمرآة بين أيديهم. يعلكون التعليقات، يطرحون البدائل، يلوون أعناقهم تذمّراً، ينظّمون مسيرات من فقاقيع الكلام لمناصرة الإنسانيّة المعذّبة، يعبرون نفق التاريخ الظالم بحق الوجود الحرّ، وينتهون بحدود الاستعمار العالميّ الحاليّ، يتمتمون بكلمات مبهمة هم أنفسهم لا يدركون كنه ما يتشدقون به. لو أنّ الأصوات قابلة للرفس، لوَضَعَتْها تحت أحذيتهم التي ينحني فوقها ذلك المسكين الذي قوّضت ظهره قساوة الأيّام. هو لا يملك سوى ملاحقة أحذيتهم التي تتأرجح يميناً وشمالاً مع عقول متمرّسة في سبك شتات المفردات المنمّقة حين تصول وتجول، وتطلقها فصاحة لسان اعتاد على رميها رمياً، لا العمل وفقها. وماسح الأحذية يلاطف النعال

براحتيه. يحاول تثبيت منديله على الأرجل الثائرة، المتضامنة مع انتفاضة أصحابها. يحاول جاهداً أنْ يعطيهم اللمعة البرّاقة.

كانت تراقبه وتراهن على لمعان يضيفه من خلاصة انحنائه وقهر مهنته. لمعة تضيء من تلك النعال على مكر تلك الثقافة. لمعة تنير مثل نجمة على هذا الكمّ من العهر والادعاء. تراقب المشهد الهزليّ وتنتظر ...

ربّما هناك صحوة مفاجئة من فصاحة المتحدّث تجعله يسحب قدميه المغتصِبَتين لإنسانيّة معذّبة، وينحني على اليد التي تمسح، يقبّلها ويعتذر.

يمرّ الوقت، ويرحل رهانها. وانتظارها يعبر من نافذة التمنّي، يلوّح لسذاجة ترقّبها، ويمضي.

ما هذا الاضطراب الفكريّ؟ ما هذا الاستعراض المقيت، وهذه الثقافة الخاوية، المتمرّسة بالتشاوف والغرور؟

غادرت المقهى وحيدة. تسير في شوارع المدينة المزدحمة بكلّ أشكال البؤس، تمنّي النفس بحريق هائل يأتي على أوراق العمر، وينثر رماده في جنون يوم عاصف ليصعب جمع شتاته، أو حتّى تقفّي آثاره. لأنّه عمر دخيل، وليس حقيقة العمر.

لن تختزل الوطن بمجموعة تعتبر الثرثرة معرفة، والرياء فنّاً وعلوماً عصريّة. مجموعة لا تجرؤ على ملامسة جسد الحقيقة وعريها.

كان الليل قد أرخى سدوله خجولاً على جسدها الملقى على أعشاب الحديقة، يوقظها لتعود من رحلة الذكرى، ولتشعر بأنسه المخضّب بلون السكينة والألم الدفين.

ثمة جاذبيّة في الصمت يبقى أعظم إنشادٍ تترنّم به في وحدتها.

مواسم فرح

كانت تحتضن إيقاع النبض بداخلها، تلامس بأناملها رقّة بدء حياة تتحدّى الحياة.

يرقص قلبها على أنغام ما تعكسه الشاشة بجوارها: صورة جنين متكوّر بين جنبات القلب، وهي تستلقي على سرير في غرفة التصوير. تترقّب ...

سقطت كلمات الممرّضة على مسامعها كما تسقط حبّات المطر في أوّل شتاء على تربة عطشى، تروي جفاف يباسها، هكذا كان وقع تلك الكلمة.

إنّها أنثى.

يا من تسكنين بين أضلعي، ماذا عساني أحمل إليكِ حين يسطع نور عبورك على بوّابة الحياة، وتُلقين برأسك الصغير على صدري؟ كيف أنتظرك أنا التي أنسج من ضعفي براثن قوّة، وأُحيك من صقيع خوفي رداء دفء ألقي به على وجه الأيّام؟ يا مرآة ذاتي القابعة في غياهب القضاء والقدر. يا جرحي النابض، قطعة منّي وخلاصة القهر في جنبات عمري ...

هل جنيت عليك حقاً حين تركتك تتسلّقين جنبات الروح، تستوطنين الفؤاد، أم جنيت على نفسي حين عاندت قراراً أرعن بجبروته، يدفعني نحو التخلّي؟ أم جنى علينا نحن الاثنتين من كان أولى به أنْ يوقد من الأمان ما يكفي لتهدئة قلقي، واحتواء بذور تفتّحك، وخلجات دبيب وجودك في داخلي؟

يا حزني الطارق على باب اللهفة، لا أملك سوى ريشة الضياع أرسم بها خطوطاً مبهمة على صفحات الأيّام والليالي، والتنقّل من فراغ إلى فراغ. كيف أنير درب اللقاء بك، وشموعي التي أحملها تناوبت على إطفائها فظاظة ريح من نكّلوا واستباحوا بقعة الضوء؟

دعيني أستعين بفطرتك حتّى أبعد شيخوخة المشاعر، ويسكنني الأمل.

غاليتي، ماذا أخبرك عن عالمي المسكون بالأوهام والأسرار؟ أخاف إنْ أخبرتك أنْ تتمرّدي ولا تأتي، وأنْ تتشبّثي بحنايا الضلوع أكثر، تغوصين في الأعماق أكثر، وتتركيني هنا على أعتاب الوصال، وأنا التي تحتاج إليك أكثر.

هل هناك عبثيّة أكبر لموعد لقاء تُحسب، بشغف، عدد ساعاته والأيّام ليأتي، وحين اقترابه ترجوه أنْ يتهادى، يبقى سرّاً يغلّفه التيه ويتأخّر؟

لن اختبىء خلف ستائر التردّد والحيرة، وأفترش المراوغة. لن أعتلي منصّة النفاق وأُلبس الحبّ ثوب الثرثرة والندم، وشذوذ أنانيّة النفس، ثم أعتق حواسّي وأغادر، كما فعل من حوّل نبات الأمل إلى حبل كوابيسٍ التفّ على عنق أيّامي، في ومضة ضعف، ورحل.

وظنّ برحيله أنّي ساقتلع حضورك المهيب، وألقي به في سلال زمن التخلّي وأمضي. لكنّك استمرّيت تعرّشين على جنبات قلبي غصناً طريّاً، زهراً شذيّاً، تتدثّرين حبّي وشوقي، تتوسّدين خوفي، تتربّعين ملكة على عرش روحي، أتوّج رأسك الصغير بفيض الأمنيات.

زماني يا غالية هو زمن إنسانيّة مبعثرة. زمن الأشباح والأشباه، والغرائز المتوتّرة.

يا جدول ماءٍ عذبٍ في صحرائي، سوف تعلمين لاحقاً أنّ أولئك الذين يتباهون بكثرة الذكاء، هم الأحوج إلى الفطنة. عندما تختبرهم المواقف ينفذون بغباء، يبرمون صفقات مشبوهة مع القدر، يعبرون طرقات متعرّجة، معبّدة بالوصوليّة، ويجنون الندم .

يؤسفني أنّك قادمة وسط هذا الزحف من النقص في القيم، وجلّ ما لدي باقات حزن خجول. استعلاء على الألم، وحنين بحجم القارّة التي أسكن عليها، أسكبه على ملامح وجهك الورديّ. هل تقبلين؟

يا طفلة قادمة لتكريس مواسم الفرح الممزوج بألم خفيّ ضنين في قوّته أمام عظمة وجودك، وتفاصيل نموّك، وعبورك إلى أحضاني، أعدك بحبّ خرافيّ في عذوبته، أقوى من كلّ خيارات القهر والخذلان.

رائحة الحبق

فتحتُ لها ذراعيَّ على امتداد هذه القارّة لأحتضنها، لكنّني احتضنت كومة من جسد نحيل يكسوه جلد تكاد لرقته تحصي عدد عظامه، وترسم استسلام انحناءته.

أتيتها أحمل في ذاكرتي صورة جارة عرفتها. هي أمّ وجدّة يضيء وجهها دوماً بابتسامة طيّبة، ومنديل أبيض على رأسها مثل راية سلام، يفيض جمالاً، موشّحاً بقناعة الأمّهات في بلادي، الصابرات على الأقدار ونوائبها.

أتيتها أحمل ذكرى أوّل مرّة فيها التقينا، وكان يتسرّب من تقاسيم وجهها شعاع أهل غادرتُهم، وخيال أحبّة فارقْتُها، وصورة ذاك الوطن العنيد بانتمائي، المستقرّ في الوجدان.

أتيتها من حُجر داكنة، ودياجير غربة متعبة، أمنّي نفسي بيدها تمسح عن جبيني تعب الأسفار والمتاهات، لكنّ ذراع صمت كئيب كانت تلفّنا.

كانت تجلس على مقعد الشيخوخة والعجز، وبصمات أيدٍ محفورة على قبضته تقود بها بسرعة شحِّ القيم العابق من أنفاس من كانوا أنفاسَها. أيادي من سهرت عليهم تحدو أغنيات الوفاء والأصالة في ليالي الشتاء الباردة، تداعب النعاس والخوف بين جفونهم حُبّاً أزليّاً .

لامستُ وجنتيها فارتعشت أناملي من أنين خافت يتماوج عبر خطوط القهر المرسومة على صفحة وجهها. تتوالى أمامه وعليه صور الجحود

وندرة القيم. ثمّة غيمة في تلك العيون الغائرة كانت تهمّ بالهطول. غيمة بحجم مأوى العجزة الذي كان يستضيفها.

أغمضت عينيّ لأرى عكس ما أرى. لأستردّ ملامحها علّني أستردّ بها حقل الأمومة المستباح في مأوى العجزة الذي اختارته لها فلذات أكبادها سكناً لمن سُلب السكينة. لكنّ ذاك الوهن المستسلم أرعبني. وتلك الأغطية البيضاء على سريرها لم أر عليها سوى سواد لون آفات تلك المدنيّة.

للطفولة في السبعين براءة مختلفة. كانت تضيء على وجهها، ترسم لوحات من طهر ممزوج بعطر الأمومة. لوحات ملائكيّة الحضور، تسكب أريجها في زوايا الغرفة وشاحاً على وجوه أخرى تشاركها زيفاً عابقاً بنكران الجميل. احتضنتُ يديها المرتعشتين وقلت لها:

أيّتها الزاهده في حضرة تصوّفك هذا، ما عساني أقدّم لك أنا المشلولة أمام عظمة انسلاخك وهذيانك الوقور؟ أنا مثلك تستفزّني العادات العارية، وتلدغني بسمومها. منذ صغري يكبر معي اعتزازي بشموخ شرقيّتي بردّ الجميل والإحسان، وبقول "واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة". كنت أعِد نفسي بلقياك على سرير آخر، في بيت محبّ يلتحفك حنانه، ويهدهد بقايا سنوات عمرك التعبة.

كانت هي المرأة الوحيدة التي تُهرّب نظراتها من خلف زجاج موصد وتحلم. تحلم مفتّحة العينين. ومن أحلامها تفوح رائحة الحبق والنعناع، تحملها الريح عربون وفاء من حديقة دارها.

أسترجع معها حديثاً عن قطاف الزيتون في إحدى المواسم، علّني أنقلها إلى واحة خضراء من ماضٍ جميل. يبتسم الوجه الحزين، وتهدأ قسماته. ليت باستطاعتي أنْ أعيد إليك ومضة سحر من تلك القرية

الوادعة، تنفض عنك غبار هذه الكآبة القاتمة، أو رنيم إلقاء تحيّة من عجوز تجلس على رصيف في إحدى أزقّتها.

كانت تتأمّل جدران الغرفة الباردة. تكتم أنفاس الخيبة في داخلها. تهذي بوقار وتقول: "يحبّونني. قرّروا أنّها المحطّة الأفضل. يحبّونني أليس كذلك؟"

تتمسّك بغطائها. تضمّه إلى صدرها عساها تشعر بشيء من دفئهم المفقود. تستعيد في الذاكرة المبعثرة بقايا من طفولتهم. ثم تبتسم ...

أبتعد عنها وأقترب. هذيانك امتد لي. تأرْجُحَكِ خلف الماضي وبين طيّات الحاضر أصابني.

أيّتها الطيّبة، أقف بجوارك كشجرة عارية. لا أملك ورقة نضرة أستطيع أنْ أستر بها قلّة الحياء والجحود. أستر بها سياطاً آدميّة تلسع أمومة مقهورة. أمومة تنتحب بصمت موجع، ترثي بقايا الأيّام وأحضان مهجورة.

فقط تلك السُبحة المعلّقة على جانب خزانتها الخشبيّة تشاركها عمق الأسى في قلبها المكسور. تلك السبحة، بخرزاتها السوداء، كانت تئنّ مثلها: تشتاق لارتماءة على سجّادة صلاة ... لتسبيحة من يديها المرتعشتين.

احتضنتها. تأمّلتُ في وجهها الحالم، وقلت لها:

أعلن أمام هاتين العينين الغائرتين عجز الكلمات ... وضعفي!

قبل الرحيل

وقفتْ حائره تلتفت يميناً وشمالاً. شيء ما يشتّت حواسّها، لكنّها لا تفقه هذا الشيء. منذ قرّرت الرحيل تحاول أنْ ترتّب فوضى الأسرار وأوراق العمر.

كانت عيناه تحدّقان في تقاسيم وجهها الساهم في اللامرئي. مرآة عينيها تعكس ألواناً قاتمة من الترقّب والانتظار. أوْدعتْ في حقائب الابتعاد وهمَ الأمنيات، وحلماً كانت تغزل لون بياضه من خيوط الأمل بأنّ للحياة متّكأً ستسند عليه رأسها المتعب. لكنْ أبت تلك الظلال القاتمة إلّا أنْ تلقي عليها مرّة أخرى قدر الجراح. على أقرب مقعد ألقت جسدها المثقل بدوار الحبّ. انتظرته لتلقي عليه سلام الزاهدين.

قال: "أهكذا ترحلين، وتتركين خلفك غبطة الأيّام وشجونها؟ ولمن تسلّمين مفاتيح اشتهاء الحياة، كلّ تلك التفاصيل والحكايات الملقاة في زوايا الغرفة؟ من يجمع أطراف الأماني المعلّقة على جدار الوقت، ذاك الرصيد الذي ادخرتُه من حزن عينيكِ، وقوارير النور من ضياء البسمة على صفحةِ وجهك؟ من يلملم نثار الذكريات المبعثرة في المقاهي والحدائق العامة؟ أنتِ المرأة التي عرفتها خارج إطار المألوف، على قياس التفرّد، المنتظرة على بوّابة الأيّام، المتوجّسة، الحالمة بأيّام لا تشبه الأيّام، لا ترتدين الأقنعة، تقفين هنا في عتمة الصمت، هكذا تعلنين انسحابك. تخلعين رداء الخوف، تُلقين في سِلال النسيان ضمّادات الجراح، وتمضين.

هل أنتِ قادره على إخماد نار اضطرابك؟ وما حال لهيب تلك الشعلة؟ كيف تخمدين بريقها وانسيابها؟"

قالت: "دعني أنسَ تلك الحكايات، ولتصمت الأسئلة وسوادُها. أريد أنْ أُلقي بهذه الحمولة التي أرهقْتَني بها، واستنزاف يومي لهذه الأنا الواقفة أمامك الآن. أبعد وجهك عنّي علّني أمحو من ذاكرتي المتعبة تفاصيله التي لم أجنِ منها سوى خدوشٍ مطبوعة كالبصمات على صفحات الأيّام. أريد خلق ملامح مألوفة. لم تعد تستهويني لعبة الكلمات. سقطتْ في عمق الحقيقه رهاناتي على مرأىً منك ومنّي، وتناثرتْ شظايا لغز الحبّ هتافات سقطت من الذاكرة، هرمت قبل أوانها. سئمتُ تلميع العلامات الفارقة. تلك اليد الممدوة لم تعد أهلاً للحياة، منحتُها الكثير ولم تُعطني سوى الخيبة."

قال: "حبيبتي الدافئه كالمواقد في أيّام الشتاء ... لا تكوني قارسة كالجليد على جسدٍ عارٍ. لا تلسعي صفوة وداعنا بسياط العتاب وتُثخني جراحي بماء اللوم الحارق. ربّما أكون رجلاً معقّداً أبله المشاعر، لكنّني أراكِ في كلّ غيمةٍ مطراً عذباً يُرَطِّب يباس عمري. وكلّما خيّم ظلام الليل، أسرق طيفك بعين خيالي، أحتضن عذاباتك، أخرج من عتمة ضعفي وأدخل ضياء قوّتك، أعِدُك لقاءً يستحقّ شرعيّة النور. أنت المرأة الأشهى. فيها عَبقُ الياسمين وعِطرُ بياضه. انتظري ... أيتُها الطيب المهاجر. لو تعلمين ... "

قالت: "لا أريد أنْ أعلم. لا تجهد نفسك بعناق طيفي، ومداعبة الأحلام. ماذا تريدني أنْ أعلم؟ أنا أعلم بأنّني بِتُّ جليداً. كلّ منافذي موصدة. ما تقرع عليه أجراس خيالاتك بات أصمّاً. تحوّل الجمر رماداً. والفضلُ لك يا هيكل رجل. عبثاً أستجدي منك الشروق، فكلّ شرفاتك في

مغيب. كم حاولت أنْ أخلق من هذا التأرجح شجاعة الكلمة، وذراعاً تمتدّ لتحمي. كم تمنّيت أنْ يرتطم نشيج الألم والتردّد والتبعثر بحواجز ضعفك. أنْ يخترق جدار هذا الوهن. لكنّني عدت وحدي تصحبني خيباتي، ترمقني رهاناتي بنظرة شامتة. وبقيت على سطور الأيّام سؤالاً بلا جواب. تحجّر في عينيكَ شيء ما، لم يبق فيك سوى مُقلٌ باهتة فارغة. تلوك حكايات العشق، تبصقها في جوف الذعر، تلوم الأقدار.

سئمت زمن المدّ والجزر يلتفّ على عُنق السنين. أضعت اتجاهاتي. حاولت أنْ أدنيك من مروج بياض الزهر في أواني عمري، أنْ أسلب هذا الوهن، أنفض عنك غبار السنين وازدواجيّة المرحلة، لكنّك حوّلتني لفحم، لجملة واحدة، لحنجرة مكتومة، صادرت الدهشة وإغراء الكلمة. عبثاً أنتظر منك الشروق،أنت الواقف على حواجز الأقدار، مكشوفاً لعراء الأشياء."

قال: "انتظري. في ليالي الصدق تتعرّى النفوس من ظلامها، وتنبثق من سوادها سحابات نور. ستهطل رذاذَ طهرٍ يمسح كلّ الشوائب العالقة في ذاتي. لا ترحلي. أمهليني قليلاً، أو كثيراً. ربّما تنتقل لي عدوى تمرّدك، وتعود لي شهيّتي للحياة. أستعيد قلباً كنت أحلم أنّه قلبي، ونعبر رصيف العمر، نمشي بمحاذاة أحلامنا، نحقّق معجزة البقاء على قيد الأمل، انتظري ... "

قالت: "لم أعد أرغب بظلٍ يحميني من حرقة أقداري. ضاقت المساحات من حولي. لم يعد لي موطئ قدم هنا حيث أنت. دعني أبحث في خفايا المجهول عن قطرة أمل تروي يباس ما حلّ بي قبل الأوان. دعني أذهب. سئمت اللاحياة واللاموت عندك. لقد تكدّست في الأرض البور أخشاب بقايانا، وغادر اخضرار الأيّام. لم يعد لي خيار سوى الانعتاق.

وليكن غياباً طويلاً. مللت الحضور العابر. اِبق أنت هنا. لملم فتات الرجولة والمفردات. زيّن بها استسلامكَ. اِنعِ بها مكنون نفسٍ مستكينة تختلق حوارات مشبوهة، وترسم أحاسيس ثلجيّة، وتعتريك نوبات جنون. كلما اقتربتُ منك ازداد شعوري ابتعاداً. دعني أمضي وفي حوزتي فرح كاذب، وألم يئنّ بصمت، يؤنس وحشة أيّامي."

مد يده إليها راجياً أنْ يلتقط شيئاً ما يعيده لإنسانيّته الهاربة، للحلم المنسحب من عناق جثمان رجولته. لكنّه لم يلتقط سوى الفراغ، وسواد الليل، وبقايا من عطرها أودعته جيوب النسيم ... حين رحلت.

أشرعة التخلّي

عندما يتسرّب الزمن من بين أصابعك، تصبح الأمكنة فارغة تستدرجك لمنازلتها في زاوية صغيرة. الوقت مهزومٌ يغلّفه الضجر. الريح العابثة تغلق نوافذ القلب، وتمضي بقاطرة العمر وقود ذاكرة مزدحمة بالنكران والأحزان.

لم يعد لديك أجوبة عن أسئلة عصيّة على الاختفاء. يصبح النجاح كما الفشل مرايا تعكس ضوءك وعتمتك، وإحساسك أنّك قطعة من جليد تصطدم بكلّ عابر إليك، وجزء منك يهذي وآخر يبحث عنك.

لم يعد يشبهك شيء. لم تعد تجد مدناً من أحلام تقطنها، ولا بركاً من نور تتوضّأ بها، ولا إمضاء يقظة توقّع به على ذيل صفحة التشكيك والغفلة.

عندها لا بدّ لك من رحيل.

رحيل يعيد بتجربة هجرته خلقاً جديداً لكلّ محاولات البقاء العليلة. وحتّى حين تقرّر الرحيل، يصادرون أنفاسك الأخيرة، وما تبقّى من شظايا الروح.

فليكن رحيلاً على أشرعة التخلّي: خير من نهايات مبتورة، أو بقاء لا يلوي إلاّ على اليتم والندم.

إلى غسّان علم الدين*

حين ابتعد الجميع، كنتَ وبِرّ الوالدين سويّاً: تهدهدان حفرة في رحم الوطن حيث العودة للولادة من جديد، تحتضن جثمان من قيل إنّ الجنّة تحت أقدامها.

شاءت الأقدار أنْ يباغتها الموت في أستراليا. هو وعدٌ لم تساوم عليه: رغبتها أنْ تتدثّر بتراب البلدة التي غادرَتْها هي، ولم تغادرك أنت. عاندْتَ الاحتمالات والقرارات. أصررت على إرسالها لتدفن في مسقط رأسها، وانتظرتها على بوّابة الوطن. نامت قريرة العين قرب شريك العمر، تلتحف تراب بلدتها التي عزفتها أناملك زمناً طويلاً: عشقاً، وشوقاً، وحنيناً.

واليوم بملء إرادتك حجزت مقعداً على طائرة القدر. سرت وحيداً، حتّى لا تكلّف أحداً عناء الغوص بجدال الانتماء النابض فيك، المشع بكتاباتك، يزهو على حروفك، يرسو عميقاً في قلبك. قلبك الذي أعلن حين وصوله أرض الوطن أنّ الوجد والتغريب قد أضنياه.

حملت وسادتك بيديك وألقيت عليها رأسك المتعب. وكانت الغفوة، بجوار من أحببت، وبمن كنت باراًّ. عَبَرْتَ للأبديّة من باب أوّله رحمة، الجمعة الأولى من شهر رمضان. لروحك السلام.

لساره العزاء. رحيل بلا موعد، لم يعطها فرصة الوداع، وطبع قبلة الشكر على يد أبٍ كانت عالمة مبتدأه ومنتهاه، حلمه، امتداده، ملاكه، سرّ بقائه.

ذاك الفيض من دمع العيون يرجو ارتماءة على صدرك، يعاتبك. فاليتم مبكّر، والأنثى ما زالت طفلة. هي تعلم أنّك حصنها المنيع أمام التحدّيات وكلّ أعاصير الحياة. وهذا الكمّ من الحسرة والضياع يبحث عنك، عن نظرة أخيره تمنّي النفس بها علّها تستكين.

12 أيّار، 2019

*غسّان علم الدين صحافيّ وشاعر وموسيقيّ لبنانيّ-أستراليّ، وافته المنيّة يوم الجمعة العاشر من أيّار 2019، حين كان في رحلة من أستراليا إلى لبنان. سارة هي ابنته الوحيدة.

Dhifaf al-Intima’

(Shores of Belonging)

This is an Arabic collection of prose by Camilia Naim.

Camilia says, ‘Childhood has never departed my dreams.’ Yet, her writing is mature and full of wisdom. Her cries are not those of a helpless child. They are loud and clear, revealing a deep emotional intelligence and concern for humanity.

Camilia’s ideas and imaginative language are impressive. To the Arabic ear, her expressions are fashioned as if by musical notes, in often complex sentences, rich in melody.

Camilia has been hesitant to publish her work, despite encouragement from several friends and writers.

It is my privilege to be her editor and first publisher.

Raghid Nahhas
Kalimat Publications

ترمي أمواج الحياة بكاميليا نعيم إلى ضفافٍ مترامية الأطراف متناقضة الأهداف، لكنّها شواطئ من مدى أوطانٍ تتبناها كاميليا وتستوعبها.

تقول في رثاء أخيها الشهيد: "سلامٌ ... لتينك العينين: حين أَغمَضهما عشق الأرض، سكن في حدقيهما كلّ الوطن."

تسكن أوطانٌ كثيرة في مساحات العاطفة التي يشغلها فكر كاميليا. وفي مفهوم انتمائها، يصبح كلّ من الأخ والأب والأمّ والابنة والحبيب والصديق ونبتة الطيّون وفنجان القهوة والماضي ... وطناً يسكن فسيح جنانها المزركشة بحروف إبداعها.

حبّها للأرض والحقّ والخير، هو حبّ المناضِلة في سبيل قضيّة، المدافِعة عن حدودٍ تريدها عصيّة، الحارسة لماضٍ تراه أبيّاً. ومع هذا ينضح الحبّ من تعابيرها التي تأتي صارخة بعاطفة موسيقيّة تملأ النفس حبوراً.

ويتفتّح الأمل مهما كان ثمن الانتماء: "حين أقيم على ضفاف انتمائي مثل نبتة بريّة، ألتمس التفتّح من شقوق الصخر. أراك سياجاً، مواسم اخضرار، وسواقيَ من الحنين."

الناشر